تفسير سورة سَبّح

وهي مكية. والدليلُ على ذلك ما رواه البخاري: حدثنا عبدان: أخبرني أبي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابنُ أمّ مكتوم، فجعلا يُقرئاننا القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد. ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين. ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء، فما جاء حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ في سُور مثلها. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن ثُوَير بن أبي فاختة، عن أبيه، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾. تفرد به أحمد. وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صلّيت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى». وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن أبيه، عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً. هكذا وقع في مسند الإمام أحمد إسناد هذا الحديث. وقد رواه مسلم ـ في صحيحه ـ وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث أبي عوانة وجرير وشعبة، ثلاثتهم عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر، عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن النعمان بن بشير، به. قال الترمذي: «وكذا رواه الثوري ومسعر، عن إبراهيم ـ قال: ورواه سفيان بن عيينة عن إبراهيم ـ عن أبيه، عن حبيب بن سالم، عن أبيه، عن النعمان. ولا يعرف لحبيب رواية عن أبيه». وقد رواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح، عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن المنتشر، عن أبيه عن حبيب بن سالم، عن النعمان به. كما رواه الجماعة، والله أعلم. ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن أبزَى، وعائشة أم المؤمنين: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ـ زادت عائشة ـ: والمعوذتين. وهكذا رُوي هذا الحديث ـ من طريق ـ جابر وأبي أمامة صُدَيّ بن عجلان، وعبد الله بن مسعود، وعمران بن حصين، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم. ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن في الإرشاد بهذا الاختصار كفاية، والله أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا موسى ـ يعني ابن أيوب الغافقي ـ حدثنا عمي إياس بن عامر، سمعت عقبة بن عامر الجهني لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦]، قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، قال: «اجعلوها في سجودكم». ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث ابن المبارك، عن موسى بن أيوب، به. وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكيع، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، قال: «سبحان ربي الأعلى». وهكذا رواه أبو داود عن زُهير بن حرب، عن وكيع، به. وقال: «خولف فيه وكيع، رواه أبو وكيع وشعبة، عن أبي إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، موقوفاً». وقال الثوري، عن السدي، عن عبد خير قال: سمعت علياً قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، فقال: سبحان ربي الأعلى. وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا حكّام بن عَنْبَسة، عن أبي إسحاق الهمداني: أن ابن عباس كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، يقول: سبحان ربي الأعلى، وإذا قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١] فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٤٠] يقول: سبحانك وبلى.

وقال قتادة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان إذا قرأها، قال: «سبحان ربي الأعلى». وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ أي: خلق الخليقة وسوّى كل مخلوق في أحسن الهيئات. وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾: قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها. وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ أي: من جميع صنوف النباتات والزروع، ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾: قال ابن عباس: هشيماً متغيراً. وعن مجاهد، وقتادة، وابن زيد، نحوه. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر إلى السواد، فجعله غثاء بعد ذلك. ثم قال ابن جرير: وهذا وإن كان محتملاً إلا أنه غير صواب؛ لمخالفته أقوال أهل التأويل. وقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: يا محمد ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾. وهذا إخبار من الله، ﷻ، ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾. وهذا اختيار ابن جرير. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله. وقيل: المراد بقوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: طلب، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ، أي: لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعه؛ فلا عليك أن تتركه. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ أي: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ أي: ذكّر حيث تنفع التذكرة. ومن ها هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه: ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدّث الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذّب الله ورسوله؟! وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ أي: سيتعظ بما تبلغه ـ يا محمد ـ من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ أي: لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب، وأنواع النكال.

قال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن سليمان ـ يعني التيمي ـ عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذي هم أهلها لا يموتون ولا يحيون، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم في النار فيدخل عليهم الشفعاء، فيأخذ الرجلُ أنصاره فينبتهم ـ أو قال: ينبتون ـ في نهر الحياء ـ أو قال: الحياة ـ أو قال: الحيوان ـ أو قال: نهر الجنة فينبتون ـ نبات الحبّة في حميل السيل». قال: وقال النبي ﷺ: «أما ترون الشجرة تكون خضراء، ثم تكون صفراء أو قال: تكون صفراء ثم تكون خضراء؟». قال: فقال بعضهم: كأن النبي ﷺ كان بالبادية. وقال أحمد أيضاً: حدثنا إسماعيل، حدثنا سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس ـ أو كما قال ـ تصيبهم النار بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فيميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فنبتوا على أنهار الجنة، فقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم. فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل». قال: فقال رجل من القوم حينئذٍ: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية. ورواه مسلم في حديث بشر بن المفضل وشعبة، كلاهما عن أبي مسلمة سعيد بن زيد، به مثله. ورواه أحمد أيضاً عن يزيد، عن سعيد بن إياس الجريري، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة، حتى يصيروا فحماً، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة، أو: يرش عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبّة في حميل السيل». وقد قال الله إخباراً عن أهل النار: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ أي: طهّر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ أي: أقام الصلاة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتثالاً لشرع الله. وقد قال

الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن أحمد العرزمي، حدثنا عمي محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾، قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله»، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ قال: «هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها». ثم قال: لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه. وكذا قال ابن عباس: إن المراد بذلك الصلوات الخمس. واختاره ابن جرير. وقال ابن جرير: حدثني عمرو بن عبد الحميد الآملي، حدثنا مروان بن معاوية، عن أبي خلدة قال: دخلت على أبي العالية فقال لي: إذا غدوت غداً إلى العيد فمرّ بي. قال: فمررت به فقال: هل طعمت شيئاً؟ قلت: نعم. قال: أفضت على نفسك من الماء؟ قلت: نعم. قال: فأخبرني ما فعلت بزكاتك؟ قلت: وكأنك قُلت: قد وَجّهتها؟ قال: إنما أردتك لهذا. ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾. وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء. قلت: وكذلك روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾. وقال أبو الأحوص: إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة، فليقدم بين يدي صلاته زكاته، فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾. وقال قتادة في هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾: زكى ماله وأرضى خالقه. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ أي: تقدمونها على أمر الآخرة، وتبدونها على ما فيه نفعهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنيّة فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟! قال الإمام أحمد: حدثنا حُسين بن محمد، حدثنا ذُوَيد، عن أبي إسحاق، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دارُ من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا أبو حمزة، عن عطاء، عن عَرْفَجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ فلما بلغ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ ترك القراءة، وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزُويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل. وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم. وقد قال الإمام أحمد: حديث سليمان بن داود الهاشمي، حدثنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب بن عبد الله، عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى». تفرد به أحمد. وقد رواه أيضاً عن أبي سلمة الخزاعي، عن الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، به مثله سواء.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا نصر بن علي، حدثنا مُعتمر بن سليمان، عن أبيه عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ قال النبي ﷺ: «كان كل هذا ـ أو: كان هذا ـ في صحف إبراهيم وموسى». ثم قال: لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس غير هذا، وحديثاً آخر أورده قبل هذا.

وقال النسائي: أخبرنا زكريا بن يحيى، أخبرنا نصر بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن عطاء بن السائب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى، فلما نزلت: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧] قال: وفّى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٣٨]. يعني أن هذه الآية كقوله في سورة «النجم»: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣٦: ٤٢]. . . الآيات إلى آخرهن. وهكذا قال عكرمة ـ فيما رواه ابن جرير، عن ابن حميد، عن مهران، عن سفيان الثوري، عن أبيه، عن عكرمة ـ في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، يقول: الآيات التي في سبح اسم ربك الأعلى. وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: مضمون هذا الكلام ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾. وهذا اختيار حسن قوي. وقد رُوي عن قتادة وابن زيد، نحوُه. والله أعلم.

آخر تفسير سورة «سبح» ولله الحمد والمنة

(٨٧) سورة الأعلى مكية
وآياتها تسع عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ﴾ اعلم أن قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (اسم ربك) قولان (أحدهما) أن المراد الأمر بتنزيه اسم الله وتقديسه (والثانى) أن الاسم صلة والمراد الأمر بتنزيه الله تعالى . أما على الوجه الأول ففى اللفظ احتمالات (أحدها) أن المراد نزه اسم ربك عن أن تسمى به غيره ، فيكون ذلك نهياً على أن يدعى غيره باسمه ، كما كان المشركون يسمون الصنم باللات ، ومسيلمة برحمان اليمامة (وثانيها) أن لا يفسر أسماءه بما لا يصح ثبوته فى حقه سبحانه نحو أن يفسر الأعلى بالعلو فى المكان والاستواء بالاستقرار بل يفسر العلو بالقهر والاقتدار والاستواء بالاستيلاء (وثالثها) أن يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم ، ويدخل فيه أن يذكر تلك الأسماء عند الغفلة وعدم الوقوف على معانيها وحقائقها (ورابعها) أن يكون المراد بسبح باسم ربك ، أى مجده بأسمائه التى أنزلتها عليك وعرفتك أنها أسماؤه كقوله (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) ونظير هذا التأويل قوله تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) ومقصود الكلام من هذا التأويل أمران : (أحدهما) سبح اسم ربك الأعلى . أى صل باسم ربك ، لا كما يصلى المشركون بالمكاء والتصدية (والثانى) أن لا يذكر العبد ربه إلا بأسماء التى ورد التوقيف بها ، قال الفراء : لا فرق بين (سبح اسم ربك) وبين (سبح باسم ربك) قال الواحدى وبينهما فرق لأن معنى (سبح باسم ربك) نزه الله تعالى بذكر اسمه المنبىء عن تنزيهه وعلوه عما يقول المبطلون ، و (سبح اسم ربك) أى نزه الاسم من السوء (وخامسها) قال أبو مسلم المراد من الاسم ههنا الصفة ، وكذا فى

قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) أما على الوجه الثانى وهو أن يكون الاسم صلة ويكون المعنى سبح ربك وهو اختيار جمع من المحققين ، قالوا لأن الإسم فى الحقيقة لفظة مؤلفة من حروف ولا يجب تنزيهها كما يجب فى الله تعالى ، ولكن المذكور إذا كان فى غاية العظمة لايذكر هو بل يذكر إسمه فيقال سبح اسمه ، ومجد ذكره ، كما يقال سلام على المجلس العالى ، وقال لبيد : إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

أى السلام وهذه طريقة مشهورة فى اللغة ، ونقول على هذا الوجه تسبيح الله يحتمل وجهين (الأول) أن لا يعامل الكفار معاملة يقدمون بسببها على ذكر الله بما لا ينبغى على ما قال (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) ، (الثانى) أنه عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل مالا يليق به ، فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وفى أسمائه وفى أحكامه ، أما فى ذاته فأن يعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض ، وأما فى صفاته ، فأن يعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة ، وأما فى أفعاله فأن يعتقد أنه مالك مطلق ، فلا اعتراض لأحد عليه فى أمر من الأمور ، وقالت المعتزلة هو أن يعتقد أن كل ما فعله فهو صواب حسن ، وأنه لا يفعل القبيح ولا يرضى به ، وأما فى أسمائه فأن لايذكر سبحانه إلا بالأسماء التى ورد التوقيف بها ، هذا عندنا وأما عند المعتزلة فهو أن لا يذكر إلا بالأسماء التى لاتوهم نقصاً بوجه من الوجوه سواء ورد الإذن بها أو لم يرد ، وأما فى أحكامه فهو أن يعلم أنه ماكلفنا لنفع يعود إليه . بل إما لمحض المالكية على ماهو قولنا ، أو لرعاية مصالح العباد على ما [هو] قول المعتزلة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من تمسك بهذه الآية فى أن الإسم نفس المسمى ، فأقول إن الخوض فى الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل النزاع ، فلا بد ههنا من بيان أن الإسم ما هو والمسمى ما هو حتى يمكننا أن نخوض فى الإسم هل هو نفس المسمى أم لا ، فنقول ، وإن كان المراد من الإسم هو هذا اللفظ ، وبالمسمى تلك الذات ، فالعاقل لا يمكنه أن يقول الاسم هو المسمى ، وإن كان المراد من الاسم هو تلك الذات ، وبالمسمى أيضاً تلك الذات كان قولنا الاسم نفس المسمى ، هو أن تلك الذات نفس تلك الذات ، وهذا لا يمكن أن ينازع فيه عاقل ، فعلمنا أن هذه المسألة فى وصفها ركيكة . وإن كان كذلك كان الخوض فى ذكر الاستدلال عليه أرك وأبعد بلى ههنا دقيقة ، وهى أن قولنا اسم لفظة جعلناها اسماً لكل مادل على معنى غير مقترن بزمان ، والاسم كذلك فيلزم أن يكون الاسم إسماً لنفسه فههنا الاسم نفس المسمى فلعل العلماء الأولين ذكروا ذلك فاشتبه الأمر على المتأخرين ، وظنوا أن الاسم فى جميع المواضع نفس المسمى ، هذا حاصل التحقيق فى هذه المسألة ، ولنرجع إلى الكلام المألوف ، قالوا الذى يدل على أن الاسم نفس المسمى أن أحداً لا يقول سبحان اسم الله وسبحان اسم ربنا فمعنى سبح اسم ربك سبح ربك ، والرب أيضاً اسم فلو كان غير المسمى لم يجز أن يقع التسبيح عليه ، واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لما بينا

فى المسألة الأولى أنه يمكن أن يكون الأمر وارداً بتسبيح الاسم ، ويمكن أن يكون المراد تسبيح المسمى وذكر الاسم صلة فيه . ويمكن أن يكون المراد سبح باسم ربك كما يقال (فسبح باسم ربك العظيم) ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى عن عقبة بن عامر أنه لما نزل قوله تعالى (فسبح اسم ربك العظيم) قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجعلوها فى ركوعكم » ولما نزل قوله (سبح اسم ربك الأعلى) قال « اجعلوها فى سجودكم » ثم روى فى الأخبار أنه عليه السلام كان يقول فى ركوعه « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده « سبحان ربى الأعلى » ثم من العلماء من قال إن هذه الأحاديث تدل على أن المراد من قوله (سبح اسم ربك) أى صل باسم ربك ، ويتأكد هذا الاحتمال بإطباق المفسرين على أن قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) ورد فى بيان أوقات الصلاة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ على عليه السلام وابن عمر (سبحان الأعلى ، الذى خلق فسوى) ولعل الوجه فيه أن قوله (سبح) أمر بالتسبيح فلا بد وأن يذكر ذلك التسبيح وما هو إلا قوله سبحان ربى الأعلى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ تمسكت المجسمة فى إثبات العلو بالمكان بقوله (ربك الأعلى) والحق أن العلو بالجهة على الله تعالى محال ، لأنه تعالى إما أن يكون متناهياً أو غير متناه ، فان كان متناهياً كان طرفه الفوقانى متناهياً ، فكان فوقه جهة فلا يكون هو سبحانه أعلى من جميع الأشياء ، وأما إن كان غير متناه فالقول بوجود أبعاد غير متناهية محال وأيضاً فلأنه إن كان غير متناه من جميع الجهات يلزم أن تكون ذاته تعالى مخالطة بالقاذورات تعالى الله عنه ، وإن كان غير متناه من بعض الجهات ومتناهياً من بعض الجهات كان الجانب المتناهى مغايراً للجانب غير المتناهى فيكون مركباً من جزأين ، وكل مركب ممكن ، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود ، هذا محال . فثبت أن العلو ههنا ليس بمعنى العلو فى الجهة ، مما يؤكد ذلك أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ينافى أن يكون المراد هو العلو بالجهة ، أما ما قبل الآية فلأن العلو عبارة عن كونه فى غاية البعد عن العالم ، وهذا لا يناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم ، أما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والإبداع فيناسب ذلك ، والسورة ههنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لأجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم ، وأما ما بعد هذه الآية فلأنه أردف قوله (الأعلى) بقوله (الذى خلق فسوى) والخالقية تناسب العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ من الملحدين من قال : بأن القرآن مشعر بأن للعالم ربين أحدهما عظيم والآخر أعلى منه ، أما العظيم فقوله (فسبح باسم ربك العظيم) وأما الأعلى منه فقوله (سبح اسم ربك الأعلى) فهذا يقتضى وجود رب آخر يكون هذا أعلى بالنسبة إليه .

واعلم أنه لما دلت الدلائل على أن الصانع تعالى واحد سقط هذا السؤال ، ثم نقول ليس فى

هـذه الآية أنه سبحانه وتعالى أعلى من رب آخر ، بل ليس فيه إلا أنه أعلى ، ثم لنا فيه تأويلات

﴿ الأول ﴾ أنه تعـالى أعلى وأجل وأعظم من كل ما يصفـه به الواصفون ، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون ، فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا ، وأصناف آلائه ونعمائه أعلى من حمدنا وشكرنا ، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا .

﴿ الثانى ﴾ أن قوله (الأعلى) تنبيه على استحقاق الله التنزيه من كل نقص فكأنه قال سبحانه فإنه (الأعلى) أى فإنه العـالى على كل شىء بملـكه وسلطانه وقدرته ، وهو كما تقول اجتنبت الخمر المزيلة للعقل أى اجتنبتها بسبب كونها مزيلة للعقل .

﴿ والثالث ﴾ أن يكون المراد بالأعلى العالى كما أن المراد بالأكبر الكبير .

﴿ المسألة السابعة ﴾ روى أنه عليه السلام كان يحب هذه السورة ويقول « لو علم الناس علم سبح اسم ربك الأعلى لرددها أحدهم ست عشرة مرة » وروى « أن عائشة مرت بأعراب يصلى بأصحابه فقرأ (سبح اسم ربك الأعلى ، الذى يسر على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، ألا بلى ألا بلى) فقالت عائشة لا آب غائبكم . ولا زالت نساؤكم فى لزبة » والله أعلم .

أما قوله تعـالى (الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى) فاعلم أنه سبحانه وتعالى لمـا أمر بالتسبيح ، فـكأن سائلا قال : الاشتغال بالتسبيح إنمـا يكون بعد المعرفة ، فما الدليل على وجود الرب ؟ فقال (الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى) واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هى الطريقة المتعمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السـلام ، والدليل عليه ما حكى الله تعـالى عن إبراهيم عليه السلام ، أنه قال (الذى خلقنى فهو يهدين) وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهرون عليهما السلام (فمن ربكما يا موسى) ؟ قال موسى عليه السلام (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وأما محمد عليه السلام فانه تعـالى أول ما أنزل عليه هو قوله (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) هـذا إشارة إلى الخلق ، ثم قال (اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم) وهذا إشارة إلى الهداية ، ثم إنه تعـالى أعاد ذكر تلك الحجة فى هذه السورة ، فقال (الذى خلق فسوى ، والذى قدّر فهدى) وإنمـا وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيراً لمـا ذكرنا أن العجائب والغرائب فى هـذه الطريقة أكثر ، ومشاهدة الإنسان لها ، واطلاعه عليها أتم ، فلا جرم كانت أقوى فى الدلالة ، ثم ههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (خلق فسوى) يحتمل أن يريد به الناس خاصة ، ويحتمل أن يريد الحيوان ، ويحتمل أن يريد كل شىء خلقه ، فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهاً (أحدها) أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة ، على ما قال (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه ، فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، (وثانيها) أن كل حيوان

فإنه مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط ، وغير مستعد لسائر الأعمال ، أما الإنسان فإنه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة فالتسوية إشارة إلى هذا (وثالثها) أنه هيأ للتكليف والقيام بأداء العبادات ، وأما من حمله على جميع الحيوانات . قال المراد أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس ، وقد استقصينا القول فى هذا الباب فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، وأما من حمله على جميع المخلوقات ، قال المراد من التسوية هو أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات ، خلق ما أراد على وفق ما أراد موصوفاً بوصف الأحكام والإتقان ، مبرأ عن الفسخ والاضطراب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الجمهور (قدر) مشددة وقرأ الكسائى على التخفيف ، أما قراءة التشديد فالمعنى أنه قدر كل شيء بمقدار معلوم ، وأما التخفيف فقال القفال معناه ملك فهدى وتأويله : أنه خلق فسوى ، وملك ما خلق ، أي تصرف فيه كيف شاء وأراد ، وهذا هو الملك فهداه لمنافعه ومصالحه ، ومنهم من قال هما لغتان بمعنى واحد ، وعليه قوله تعالى (فقدرنا فنعم القادرون) بالتشديد والتخفيف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أن قوله (قدر) يتناول المخلوقات فى ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدر السموات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والانسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم ، وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقداراً معلوماً على ما قال (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) وتفصيل هذه الجملة مما لا يفى بشرحه المجلدات ، بل العالم كله من أعلى أعليين إلى أسفل السافلين ، تفسير هذه الآية . وتفصيل هذه الجملة .

أما قوله (فهدى) فالمراد أن كل مزاج فانه مستعد لقوة خاصة وكل قوة فانها لا تصلح إلا لفعل معين ، فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف فى الأجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لأجله تستعد لقبول تلك القوى ، وقوله (فهدى) عبارة عن خلق تلك القوى فى تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدراً لفعل معين ، ويحصل من مجموعها تمام المصلحة ، وللمفسرين فيه وجوه ، قال مقاتل : هدى الذكر للأنثى كيف يأتيها ، وقال آخرون هداه للمعيشة ورعاه ، وقال آخرون هدى الانسان لسبل الخير والشر والسعاة والشقاوة ، وذلك لأنه جعله حساساً دراكا متمكناً من الإقدام على مايسره والإحجام عما يسوءه كما قال (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) وقال (ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها) وقال السدى : قدر مدة الجنين فى الرحم ثم هداه للخروج وقال الفراء قدر فهدى وأضل ، فاكتفى بذكر (أحداهما) كقوله (سرابيل تقيكم الحر) وقال آخرون الهداية بمعنى الدعاء إلى الإيمان كقوله (وإنك لتهدى) أي تدعو ، وقد دعى الكل إلى الإيمان ، وقال

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾

آخرون هدى أى دلهم بأفعاله على توحيده وجلال كبريائه ، ونعوت صمديته ، وفردانيته ، وذلك لأن العاقل يرى فى العالم أفعالا محكمة متقنة منتسقة منتظمة ، فهى لا محالة تدل على الصانع القديم ، وقال قتادة فى قوله (فهدى) إن الله تعالى ما أكره عبداً على معصية ، ولا على ضلالة ، ولا رضيها له ولا أمره بها ، ولكن رضى لكم الطاعة ، وأمركم بها ، ونهاكم عن المعصية ، واعلم أن هذه الأقوال على كثرتها لا تخرج عن قسمين ، فمنهم من حمل قوله (فهدى) على ما يتعلق بالدين كقوله (وهديناه النجدين) ومنهم من حمله على مايرجع إلى مصالح الدنيا . والأول أقوى ، لأن قوله (خلق فسوى وقدر) يرجع إلى أحوال الدنيا ، ويدخل فيه إكمال العقل والقوى ثم أتبعه بقوله (فهدى) أى كلفه ودل على الدين ، أما قوله تعالى (والذى أخرج المرعى) فاعلم أنه سبحانه لما بين ما يختص به الناس أتبعه بذكر ما يختص به غير الناس من النعم : فقال (والذى أخرج المرعى) أى هو القادر على إنبات العشب لا الأصنام التى عبدتها الكفرة ، والمرعى ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش ، قال ابن عباس المرعى الكلأ الأخضر . ثم قال فجعله غثاء أحوى وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الغثاء ما يبس من النبت فحملته الأودية والمياه وألوت به الرياح ، وقال قطرب واحد الغثاء غثاءة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الحوة السواد ، وقال بعضهم الأحوى هو الذى يضرب إلى السواد إذا أصابته رطوبة ، وفى أحوى قولان (أحدهما) أنه نعت الغثاء أى صار بعد الخضرة يابساً فتغير إلى السواد ، وسبب ذلك السواد أمور (أحدها) أن العشب إنما يجف عند استيلاء البرد على الهواء ، ومن شأن البرودة أنها تبيض الرطب وتسود اليابس (وثانيها) أن يحملها السيل فيلصق بها أجزاء كدرة فتسود (وثالثها) أن يحملها الريح فتلصق بها الغبار الكثير فتسود (القول الثانى) وهو اختيار الفراء وأبى عبيدة . وهو أن يكون الأحوى هو الأسود لشدة خضرته ، كما قيل (مدهامتان) أى سوداوان لشدة خضرتهما . والتقدير الذى أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء ، كقوله (ولم يجعل له عوجاً قيما) أى أنزله قيما ولم يجعل له عوجاً .

قوله تعالى :﴿ سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً بالتسبيح فقال (سبح اسم ربك الأعلى) وعلم محمداً عليه السلام أن ذلك التسبيح لا يتم ولا يكمل إلا بقراءة ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن ، لما بينا أن التسبيح الذى يليق به هو الذى يرتضية لنفسه ، فلا جرم كان يتذكر القرآن فى نفسه مخافة أن ينسى فأزال الله تعالى ذلك الخوف عن قلبه بقوله (سنقرئك فلا تنسى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدى (سنقرئك) أى سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ماتقرؤه ، والمعنى نجعلك قارئاً للقرآن تقرؤه فلا تنساه ، قال مجاهد ومقاتل والكلبى : كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى ، وكان جبريل لا يفرغ من آخر الوحى حتى يتكلم هو بأوله مخافة النسيان ، فقال تعالى (سنقرئك فلا تنسى) أى سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه ، ونظيره قوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) وقوله (لاتحرك به لسانه لتعجل به) ثم ذكروا فى كيفية ذلك الاستقراء والتعليم وجوهاً (أحدها) أن جبريل عليه السلام سيقرأ عليك القرآن مرات حتى تحفظه حفظاً لاتنساه (وثانيها) أنا نشرح صدرك ونقوى خاطرك حتى تحفظ بالمرة الواحدة حفظاً لاتنساه (وثالثها) أنه تعالى لما أمره فى أول السورة بالتسبيح فكأنه تعالى قال : واظب على ذلك ودم عليه فإنا سنقرئك القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين ويكون فيه ذكرك وذكر قومك ونجمعه فى قلبك ، ونيسرك لليسرى وهو العمل به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على المعجزة من وجهين (الأول) أنه كان رجلا أمياً فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة ، خارق للعادة فيكون معجزاً (الثانى) أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع فى المستقبل وقد وقع فكان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً ، أما قوله (فلا تنسى) فقال بعضهم (فلا تنسى) معناه النهى ، والألف مزيدة للفاصلة ، كقوله (السبيلا) يعنى فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسكه ، والقول المشهور أن هذا خبر والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى وتأمن النسيان ، كقولك سأكسوك فلا تعرى أى فتأمن العرى ، واحتج أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات فى هذه الآية منها أن النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يصح ورود الأمر والنهى به ، فلا بد وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التى تنافى النسيان مثل الدراسة وكثرة التذكر . وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ . ومنها أن تجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضاً خلاف الأصل ومنها أنا إذا جعلناه خبراً كان معنى الآية بشارة الله إياه بأنى أجعلك بحيث لا تنساه ، وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهى الدراسة والقراءة ، وهذا ليس فى البشارة وتعظيم حاله مثل الأول ، ولأنه على خلاف قوله (لاتحرك به لسانك لتعجل به)

أما قوله (إلا ما شاء الله) ففيه احتمالان (أحدهما) أن يقال هذا الاستثناء غير حاصل فى الحقيقة وأنه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئاً ، قال الكلبى : إنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئاً ، وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله (إلا ما شاء الله) أحد أمور (أحدها) التبرك بذكر هذه الكلمة على ماقال تعالى (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً ، إلا أن يشاء الله) وكأنه تعالى يقول : أنا مع أنى عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأمور على التفصيل لاأخبر عن

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾

وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة فأنت وأمتك يامحمد أولى بها (وثانيها) قال الفراء إنه تعالى ماشاء أن ينسى محمد عليه السلام شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لذلك لقدر عليه ، كما قال (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) ثم إنا نقطع بأنه تعالى ماشاء ذلك وقال لمحمد عليه السلام (لئن أشركت ليحبطن عملك) مع أنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك البتة ، وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوز رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ماينزل عليه من الوحى قليلا كان أو كثيراً أن يكون ذلك هو المستثنى ، فلا جرم كان يبالغ فى التثبت والتحفظ والتيقظ فى جميع المواضع ، فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاءه عليه السلام على التيقظ ، فى جميع الأحوال (ورابعها) أن يكون الغرض من قوله (إلا ما شاء الله) نفى النسيان رأساً ، كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهيمى فيما أملك إلا فيما شاء [الله] ، ولا يقصد استثناء شيء (القول الثانى) أن قوله (إلا ما شاء الله) استثناء فى الحقيقة ، وعلى هذا التقدير تحتمل الآية وجوهاً (أحدها) قال الزجاج : إلا ما شاء الله أن ينسى ، فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك ، فإذا قد ينسى ولكنه يتذكر فلا ينسى نسياناً كلياً دائماً ، روى أنه أسقط آية فى قراءته فى الصلاة ، فحسب أبى أنها نسخت ، فسأله فقال نسيتها (وثانيها) قال مقاتل : إلا ما شاء الله أن ينسيه ، ويكون المراد من الإنساء ههنا نسخه ، كما قال (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها) فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها ، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلى به ، فيصير ذلك سبباً لنسيانه ، وزواله عن الصدور (وثالثها) أن يكون معنى قوله (إلا ما شاء الله) القلة والندرة ، ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع ، بل من الآداب والسنن ، فإنه لو نسى شيئاً من الواجبات ولم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل فى الشرع ، وإنه غير جائز .

أما قوله تعالى (إنه يعلم الجهر ومايخفى) ففيه وجهان (أحدهما) أن المعنى أنه سبحانه عالم بجهرك فى القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام ، وعالم بالسر الذى فى قلبك وهو أنك تخاف النسيان ، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه (والثانى) أن يكون المعنى : فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ ، فإنه أعلم بمصالح العبيد ، فينسخ حيث يعلم أن المصلحة فى النسخ .

قوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اليسرى هي أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر ، إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه وجوه (أحدها) أن قوله (ونيسرك) معطوف على (سنقرؤك) وقوله (إنه يعلم

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾

الجهر وما يخفى) اعتراض ، والتقدير : سنقرؤك فلا تنسى ، ونوفقك للطريقة التى هى أسهل وأيسر ، يعنى فى حفظ القرآن (وثانيها) قال ابن مسعود : اليسرى الجنة ، والمعنى نيسرك للعمل المؤدى إليها (وثالثها) نهون عليك الوحى حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به (ورابعها) نوفقك للشريعة وهى الحنيفية السهلة السمحة ، والوجه الأول أقرب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لسائل أن يسأل فيقول العبارة المعتادة أن يقال جعل الفعل الفلانى ميسراً لفلان ، ولا يقال جعل فلان ميسراً للفعل الفلانى فما الفائدة فيه ؟ ههنا (الجواب) أن هذه العبارة كما أنها اختيار القرآن فى هذا الموضع ، وفى سورة الليل أيضاً ، فكذا هى اختيار الرسول فى قوله عليه السلام « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وفيه لطيفة علمية ، وذلك لأن ذلك الفعل فى نفسه ماهية ممكنة قابلة للوجود والعدم على السوية ، فما دام القادر يبقى بالنسبة إلى فعلها وتركها على السوية امتنع صدور الفعل عنه ، فإذا ترجح جانب الفاعلية على جانب التاركية ، فحينئذ يحصل الفعل ، فثبت أن الفعل ما لم يجب لم يوجد ، وذلك الرجحان هو المسمى بالتيسير ، فثبت أن الأمر بالتحقيق هو أن الفاعل يصير ميسيراً للفعل ، لا أن الفعل يصير ميسراً للفاعل ، فسبحان من له تحت كل كلمة حكمة خفية وسر عجيب يبهر العقول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما قال (ونيسرك لليسرى) بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى دالة على عظمة العطاء ، نظيره قوله تعالى (إنا أنزلناه ، إنا نحن نزلنا الذكر ، إنا أعطيناك الكوثر) دلت هذه الآية على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل مالم يفتحه على أحد غيره ، وكيف لا وقد كان صبياً لا أب له ولا أم له نشأ فى قوم جهال ، ثم إنه تعالى جعله فى أفعاله وأقوال قدوة للعالمين ، وهدياً للخلق أجمعين .

أما قوله تعالى ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ فاعلم أنه تعالى لما تكفل بتيسير جميع مصالح الدنيا والآخرة أمر بدعوة الخلق إلى الحق ، لأن كمال حال الإنسان فى أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه تاماً وفوق التمام ، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام تاماً بمقتضى قوله (ونيسر لليسرى) أمر بأن يجعل نفسه فوق التمام بمقتضى قوله (فذكر) لأن التذكير يقتضى تكميل الناقصين وهداية الجاهلين ، ومن كان كذلك كان فياضاً للكمال ، فكان تاماً وفوق التمام ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل فيجب عليه أن يذكرهم سواء نفعتهم الذكرى أو لم تنفعهم ، فما المراد من تعليقه على الشرط فى قوله (إن نفعت الذكرى) ؟ (الجواب) أن المعلق بأن على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ، ويدل عليه آيات منها هذه الآية ومنها قوله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً) ومنها قوله (واشكروا لله إن كنتم

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠)

إياه تعبدون) ومنها قوله (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم) فان القصر جائز وإن لم يوجد الخوف ، ومنها قوله (فإن لم تجدوا كاتباً فرهان) والرهن جائز مع الكتابة ، ومنها قوله (فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله) والمراجعة جائزة بدون هذا الظن ، إذا عرفت هذا فنقول ذكروا لذكر هذا الشرط فوائد (إحداها) أن من باشر فعلا لغرض فلا شك أن الصورة التي علم فيها إفضاء تلك الوسيلة إلى ذلك الغرض ، كان إلى ذلك الفعل أوجب من الصورة التي علم فيها عدم ذلك الافضاء ، فلذلك قال (إن نفعت الذكرى) (وثانيها) أنه تعالى ذكر أشرف الحالتين ، ونبه على الأخرى كقوله (سرابيل تقيكم الحر) والتقدير (فذكر إن نفعت الذكرى) أو لم تنفع (وثالثها) أن المراد منه البعث على الانتفاع بالذكرى ، كما يقول المرء لغيره إذا بين له الحق ، قد أوضحت لك إن كنت تعقل فيكون مراده البعث على القبول والانتفاع به (ورابعها) أن هذا يجرى مجرى تنبيه الرسول ﷺ أنه لا تنفعهم الذكرى كما يقال للرجل ادع فلاناً إن أجابك ، والمعنى وما أراه يجيبك (وخامسها) أنه عليه السلام دعاهم إلى الله كثيراً ، وكلما كانت دعوته أكثر كان عتوهم أكثر ، وكان عليه السلام يحترق حسرة على ذلك فقيل له (وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) إذ التذكير العام واجب في أول الأمر فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود فلهذا المعنى قيده بهذا الشرط .

﴿ السؤال الثاني ﴾ التعليق بالشرط إنما يحسن في حق من يكون جاهلا بالعواقب ، أما علام الغيوب فكيف يليق به ذلك ؟ (الجواب) روى في الكتب أنه تعالى كان يقول لموسى (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وأنا أشهد أنه لا يتذكر ولا يخشى . فأمر الدعوة والبعثة شيء وعلمه تعالى بالمغيبات وعواقب الأمور غير ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر .

﴿السؤال الثالث﴾ التذكير المأمور به هل مضبوط مثل أن يذكرهم عشرات مرات ، أو غير مضبوط ، وحينئذ كيف يكون الخروج عن عهدة التكليف ؟ (والجواب) أن الضابط فيه هو العرف والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن الناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام منهم من قطع بصحته ، ومنهم من جوز وجوده ولكنه غير قاطع فيه لا بالنفي ولا بالاثبات ، ومنهم من أصر على انكاره وقطع بأنه لا يكون فالقسمان الأولان تكون الخشية حاصلة لهما ، وأما القسم الثالث فلا خشية له ولا خوف إذا عرفت ذلك ظهر أن الآية تحتمل تفسيرين : (أحدهما) أن يقال الذي يخشى هو الذي يكون عارفاً بالله وعارفاً بكمال قدرته وعلمه وحكمته ، وذلك يقتضي كونه قاطعاً بصحة المعاد

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى «١١» الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى «١٢»

ولذلك قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فكأنه تعالى لما قال (فذكر إن نفعت الذكرى) بين فى هذه الآية أن الذى تنفعه الذكرى من هو ، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على حصول الخشية فى القلب ، وصفات القلوب مما لا اطلاع لأحد عليها إلا الله سبحانه وجب على الرسول تعميم الدعوة تحصيلا للمقصود ، فإن المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير ، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير (الثانى) أن يقال إن الخشية حاصلة للعالمين وللمتوقفين غير المعاندين وأكثر الخلق متوقفون غير معاندين والمعاند فيهم قليل ، فإذا ضم إلى المتوقفين الذين لهم الغلبة العارفون كانت الغلبة العظيمة لغير المعاندين ، ثم إن كثيراً من المعاندين ، إنما يعاندون باللسان ، فأما المعاند فى قلبه بينه وبين نفسه فذلك مما لا يكون أو إن كان فهو فى غاية الندرة والقلة ، ثم إن الإنسان إذا سمع التخويف بأنه (يصلى النار الكبرى) وأنه (لا يموت فيها ولا يحيى) انكسر قلبه فلا بد وأن يستمع وينتفع أغلب الخلق فى أغلب الأحوال ، وأما ذلك المعرض فنادر ، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير ، فمن هذا الوجه كان قوله (فذكر إن نفعت الذكرى) يوجب تعميم التذكير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ السين فى قوله (سيذكر) يحتمل أن تكون بمعنى سوف يذكر وسوف من الله واجب كقوله (سنقرؤك فلا تنسى) ويحتمل أن يكون المعنى أن من خشى الله فانه يتذكر وإن كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر فهو بعد طول المدة يذكر ، والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العلم إنما يسمى تذكراً إذا كان قد حصل العلم أولا ثم نسيه وهذه الحالة غير حاصلة للكفار فكيف سمى الله تعالى ذلك بالتذكر؟ (وجوابه) أن لقوة الدلائل وظهورها كأن ذلك العلم كان حاصلا ، ثم إنه زال بسبب التقليد والعناد ، فلهذا أسماه الله تعالى بالتذكر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قيل نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان ، وقيل نزلت فى ابن أم مكتوم .

أما قوله تعالى ﴿ ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ﴾ فاعلم أنا بينا أن أقسام الخلق ثلاثة العارفون والمتوقفون والمعاندون ، وبينا أن القسمين الأولين ، لا بد وأن يكون لهما خوف وخشية ، وصاحب الخشية لا بد وأن يستمع إلى الدعوة وينتفع بها ، فيكون الأشقى هو المعاند الذى لا يستمع إلى الدعوة ولا ينتفع بها ، فلهذا قال تعالى (ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تفسير النار (الكبرى) وجوهاً (أحدها) قال الحسن : الكبرى نار جهنم ، والصغرى نار الدنيا (وثانيها) أن فى الآخرة نيراناً ودركات متفاضلة كما أن فى الدنيا ذنوباً ومعاصى متفاضلة ، وكما أن الكافر أشقى العصاة كذلك يصلى أعظم النيران (وثالثها)

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى «١٣» قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى «١٤»

أن النار الكبرى هي النار السفلى ، وهي نصيب الكفار على ماقال تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالوا نزلت هذه الآية فى الوليد وعتبة وأبى ، وأنت تعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لاسيما وقد بينا صحة هذا الترتيب بالبرهان العقلى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لقائل أن يقول إن الله تعالى ذكر ههنا قسمين (أحدهما) الذى يذكر ويخشى (والثانى) الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ، لكن وجود الأشقى ، يستدعى وجود الشقى فكيف حال هذا القسم ؟ (وجوابه) أن لفظة الأشقى لاتقتضى وجود الشقى إذ قد يجرى مثل هذا اللفظ من غير مشاركة ، كقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) وقيل المعنى ، ويتجنبها الشقى الذى يصلى كما فى قوله (وهو أهون عليه) أى هين عليه ، ومثل قول القائل:

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

هذا ما قيل لكن التحقيق ماذكرنا أن الفرق ثلاثة ، العارف والمتوقف والمعاند فالسعيد هو العارف ، والمتوقف له بعض الشقاء والأشقى هو المعاند الذى بينا أنه هو الذى لايلتفت إلى الدعوة ولا يصغى إليها ويتجنبها .

أما قوله تعالى ﴿ ثم لايموت فيها ولا يحيى ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ للمفسرين فيه وجهان : (أحدهما) لايموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ، كما قال (لايقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) وهذا على مذهب العرب تقول للمبتلى بالبلاء الشديد لاهو حى ولا هو ميت (وثانيهما) معناه أن نفس أحدهم فى النار تصير فى حلقه فلا تخرج فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما قيل (ثم) لأن هذه الحالة أفظع وأعظم من الصلى فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة .

أما قوله تعالى ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ ففيه وجهان : (أحدهما) أنه تعالى لما ذكر وعيد من أعرض عن النظر والتأمل فى دلائل الله تعالى ، أتبعه بالوعد لمن تزكى وتطهر من دنس الشرك (وثانيهما) وهو قول الزجاج تكثر من التقوى لأن معنى الزاكى النامى الكثير ، وهذا الوجه معتضد بقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون) أثبت الفلاح المستجمعين لتلك الخصال وكذلك قوله تعالى فى أول البقرة (وأولئك هم المفلحون) وأما الوجه الأول فانه معتضد بوجهين : (الأول) أنه تعالى لما لم يذكر فى الآية ما يجب التزكى عنه علمنا أن المراد هو التزكى عما مر ذكره قبل الآية ، وذلك هو الكفر ، فعلمنا أن المراد ههنا (قد

وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾

أفلح من تزكى) عن الكفر الذى مر ذكره قبل هذه الآية (والثانى) أن الإسم المطلق ينصرف إلى المسمى الكامل ، وأكمل أنواع التزكية هو تزكية القلب عن ظلمة الكفر فوجب صرف هذا المطلق إليه ، ويتأكد هذا التأويل بما روى عن ابن عباس أنه قال معنى (تزكى) قول لا إله إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر المفسرون فيه وجوها . (أحدها) قال ابن عباس ذكر معاده وموقفه بين يدى ربه فصلى له . وأقول هذا التفسير متعين وذلك لأن مراتب أعمال المكلف ثلاثة (أولها) إزالة العقائد الفاسدة عن القلب (وثانيها) استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه (وثالثها) الاشتغال بخدمته .

﴿ فالمرتبة الأولى ﴾ هى المراد بالتزكية فى قوله (قد أفلح من تزكى) .

﴿ وثانيها ﴾ هى المراد بقوله (وذكر اسم ربه) فان الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة .

﴿ وثالثها ﴾ الخدمة وهى المراد بقوله (فصلى) فإن الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه ، لابد وأن يظهر فى جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع .

﴿ وثانيها ﴾ قال قوم من المفسرين قوله (قد أفلح من تزكى) يعنى من تصدق قبل مروره إلى العيد (وذكر اسم ربه فصلى) يعنى ثم صلى صلاة العيد بعد ذلك مع الإمام . وهذا قول عكرمة وأبى العالية وابن سيرين وابن عمر وروى ذلك مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا التفسير فيه إشكال من وجهين (الأول) أن عادة الله تعالى فى القرآن تقديم ذكر الصلاة على ذكر الزكاة لا تقديم الزكاة على الصلاة (والثانى) قال الثعلبى هذه السورة مكية بالإجماع ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر . أجاب الواحدى عنه بأنه لا يمتنع أن يقال لما كان فى معلوم الله تعالى أن ذلك سيكون أثنى على من فعل ذلك (وثالثها) قال مقاتل (قد أفلح من تزكى) أى تصدق من ماله وذكر ربه بالتوحيد فى الصلاة فصلى له ، والفرق بين هذا الوجه وما قبله أن هذا يتناول الزكاة والصلاة المفروضتين ، والوجه الأول ليس كذلك (ورابعها) قد أفلح من تزكى ، ليس المراد منه زكاة المال بل زكاة الأعمال أى من تطهر فى أعماله من الرياء والتقصير ، لأن اللفظ المعتاد أن يقال فى المال زكى ولا يقال تزكى قال تعالى (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) ، (وخامسها) قال ابن عباس (وذكر اسم ربه) أى كبر فى خروجه إلى العيد وصلى صلاة العيد (وسادسها) المعنى وذكر اسم ربه فى صلاته ولا تكون صلاته كصلاة المنافقين حيث يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفقهاء احتجوا بهذه الآية على وجوب تكبيرة الافتتاح ، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بها على أن تكبيرة الافتتاح ليست من الصلاة ، قال لأن الصلاة معطوفة عليها والعطف يستدعى المغايرة ، واحتج أيضاً بهذه الآية على أن الافتتاح جائز بكل اسم من اسمائه وأجاب أصحابنا بأن تقدير الآية ، وصلى فذكر اسم ربه ولا فرق بين أن تقول أكرمتنى فزرتنى وبين أن تقول زرتنى فأكرمتنى ، ولابى حنيفة أن يقول : ترك العمل بفاء التعقيب لايجوز من غير دليل (والأولى) فى الجواب أن يقال الآية تدل على مدح كل من ذكر اسم الله فصلى عقيبه وليس فى الآية بيان أن ذلك الذكر هو تكبيرة الافتتاح . فلعل المراد به أن من ذكر الله بقلبه وذكر ثوابه وعقابه دعاه ذلك إلى فعل الصلاة ، فحينئذ يأتى بالصلاة التى أحد أجزائها التكبير ، وحينئذ يندفع الاستدلال .

ثم قال تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ وفيه قراءتان : قراءة العامة بالتاء ويؤكده حرف أبى ، أى بل أنتم تؤثرون عمل الدنيا على عمل الآخرة . قال ابن مسعود : إن الدنيا أحضرت ، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وإن الآخرة لغيب لنا وزويت عنا ، فأخذنا بالعاجل وتركنا الآجل . وقرأ أبو عمرو (يؤثرون) بالياء يعنى الأشقى .

ثم قال تعالى ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ وتمامه أن كل ما كان خيراً وأبقى فهو آثر ، فيلزم أن تكون الآخره آثر من الدنيا وهم كانوا يؤثرون الدنيا ، وإنما قلنا إن الآخرة خير لوجوه (أحدها) أن الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، فالآخرة خير من الدنيا (وثانيها) أن الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام ، والآخرة ليست كذلك (وثالثها) أن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والباقى خير من الفانى .

ثم قال ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى ﴾ واختلفوا فى المشار إليه بلفظ هذا منهم من قال جميع السورة ، وذلك لأن السورة مشتملة على التوحيد والنبوة والوعيد على الكفر بالله ، والوعد على طاعة الله تعالى .

ومنهم من قال بل المشار إليه بهذه الإشارة هو من قوله (قد أفلح من تزكى) إشارة إلى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغى . أما القوة النظرية فعن جميع العقائد الفاسدة ، وأما فى القوة العملية فعن جميع الأخلاق الذمية .

وأما قوله (وذكر اسم ربه) فهو إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى ، وأما قوله (فصلى) فهو إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله تعالى .

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى «١٩»

وأما قوله (بل تؤثرون الحياة الدنيا) فهو إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا .

وأما قوله (والآخرة خير وأبقى) فهو إشارة إلى الترغيب فى الآخرة وفى ثواب الله تعالى ، وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع ، فلهذا السبب قال (إن هذا لفى الصحف الأولى) وهذا الوجه كما تأكد بالعقل فالخبر يدل عليه ، روى عن أبى ذر أنه قال : قلت هل فى الدنيا مما فى صحف إبراهيم وموسى ؟ فقال اقرأ ياأبا ذر (قد أفلح من تزكى) وقال آخرون إن قوله هذا إشارة إلى قوله (والآخرة خير وأبقى) وذلك لأن الإشارة راجعة إلى أقرب المذكورات وذلك هو هـذه الآية ، وأما قوله (لفى الصحف الأولى) فهو نظير لقوله (وإنه لفى زبر الأولين) وقوله (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا) .

وقوله تعالى ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ فيه قولان (أحدهما) أنه بيان لقوله (فى الصحف الأولى)و (الثانى) أن المراد أنه مذكور فى صحف جميع الأنبياء التى منها صحف إبراهيم وموسى) روى عن أبى ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال مائة وأربعة كتب ، على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والانجيل والزبور والفرقان ، وقيل إن فى صحف إبراهيم : ينبغى للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلا على شأنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٨٧ – سورة الأعلى
(مكية وهى تسع عشرة آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٨٧ الأعلى

ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ٨٧ الأعلى

وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ٨٧ الأعلى

كما قاله قتادة قال أبو عبيدة هو فى الأصل تصغير رود بالضم وأنشد كأنها ثمل تمشى على رود أى على مهل وقيل تصغيراً رواد مصدراً رود بالترخيم وله فى الاستعمال وجهان آخران كونه اسم فعل نحو رويداً زيد وكونه حالا نحو سار القوم رويداً أى متمهلين وفى إيراد البدل بصيغة لاتحتمل التكثير وتقييده برويداً على أحد الوجهين المذكورين من تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسكين قلبه مالا يخفى . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات والله أعلم .

﴿ سورة الأعلى مكية وآيها تسع عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (سبح اسم ربك الأعلى) أى نزه اسمه عز وجل عن الإلحاد فيه
بالتأويلات الزائغة وعن إطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه وعن ذكره لاعلى وجه الإعظام والإجلال والأعلى إما صفة للرب وهو الأظهر أو للاسم وقرىء سبحان ربى الأعلى وفى الحديث لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها فى ركوعكم فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها فى سجودكم وكانوا يقولون فى الركوع اللهم لك ركعت وفى السجود اللهم
٢ لك سجدت (الذى خلق فسوى) صفة أخرى للرب على الوجه الأول ومنصوب على المدح على الثانى
لئلا يلزم الفصل بين الموصوف والصفة بصفة غيره أى خلق كل شىء فسوى خلقه بأن جعل له مابه
٣ يتأتى كماله ويتسنى معاشه وقوله تعالى (والذى قدر) إما صفة أخرى للرب كالموصول الأول أو معطوف
عليه وكذا حال مابعده قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأفرادها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها
* (فهدى) أى فوجه كل واحد منها إلى مايصدر عنه وينبغى له طبعاً أو اختياراً ويسره لما خلق له
بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وإنزال الآيات ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات

وَالَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ ٨٧ الأعلى

فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ٨٧ الأعلى

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ٨٧ الأعلى

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ٨٧ الأعلى

لرأيت كل منها ماتحار فيه العقول يروى أن الأفعى إذا بلغت ألف سنة عميت وقد ألهمها الله تعالى أن تمسح عينها بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها فربما كانت عند عروض العمى لها فى برية بينها و بين الريف مسافة طويلة فتطويها حتى تهجم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك عينها بورقها وترجع باصرة بإذن الله عز وجل ويروى أن التمساح لا يكون له دبر وإنما يخرج فضلات ما يأكله من فمه حيث قيض الله له طائراً قدر غذاؤه من ذلك فإذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه وقد خلق الله تعالى له من فوق منقاره ومن تحته قرنين لئلا يطبق عليه التمساح فمه هذا وأما فنون هداياته سبحانه وتعالى للإنسان من حيث الجسمية ومن حيث الحيوانية لاسيما من حيث الإنسانية
٤ فما لا يحيط به فلك العبارة والتحرير ولا يعلمه إلا العليم الخبير (والذى أخرج المرعى) أى أنبت
٥ ما يرعاه الدواب غضاً طرياً يرف (فجعله) بعد ذلك (غثاء أحوى) أى دريناً أسود وقيل أحوى
٦ حال من المرعى أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة والرى فجعله غثاء بعد ذلك وقوله تعالى (سنقرئك
فلا تنسى) بيان لهداية الله تعالى الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم إثر بيان هدايته تعالى العامة لكافة مخلوقاته وهى هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقى الوحى وحفظ القرآن الذى هو هدى للعالمين وتوفيقه عليه الصلاة والسلام لهداية الناس أجمعين والسين إما للتأكيد وإما لأن المراد اقراء ما أوحى الله إليه حينئذ وما سيوحى إليه بعد ذلك فهو وعد كريم باستمرار الوحى فى ضمن الوعد بالإقراء أى سنقرئك ما نوحى إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة فلا تنسى أصلا من قوة الحفظ والإتقان مع أنك أمى لا تدرى ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك آية أخرى لك مع ما فى تضاعيف ما تقرؤه من الآيات البينات من حيث الإعجاز ومن حيث الإخبار بالمغيبات وقيل فلا تنسى نهى والألف لمراعاة الفاصلة كما فى قوله تعالى فأضلونا السبيلا وقوله
٧ تعالى (إلا ما شاء الله) استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أى لا تنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه أبداً بأن نسخ تلاوته والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة والإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات وقيل المراد به النسيان فى الجملة على القلة والندرة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام أسقط آية فى قراءته فى الصلاة فحسب أبى أنها نسخت فسأله فقال عليه الصلاة

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ٨٧ الأعلى

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ٨٧ الأعلى

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ٨٧ الأعلى

والسلام نسيتها وقيل نفى النسيان رأساً فإن القلة قد تستعمل فى النفى فالمراد بالنسيان حينئذ النسيان
بالكلية إذ هو المنفى رأساً لا ماقد ينسى ثم يذكر (إنه يعلم الجهر وما يخفى) تعليل لما قبله أى يعلم *
ماظهر وما بطن من الأمور التى من جملتها ما أوحى إليك فينسى مايشاء إنساءه ويبقى محفوظاً مايشاء
إبقاءه لما نيط بكل منهمامن مصالح دينكم (ونيسرك لليسرى) عطف على نقرئك كما ينبىء عنه الالتفات ٨
إلى الحكاية وما بينهما اعتراض وارد لما ذكر من التعليل وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام
مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما فى قوله تعالى ويسر لى أمرى للإيذان بقوة تمكينه
عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة
والسلام جبل عليها كما فى قوله عليه الصلاة والسلام اعملوا فكل ميسر لما خلق له أى نوفقك توفيقاً
مستمراً للطريقة اليسرى فى كل باب من أبواب الدين علماً وتعليما واهتداء وهداية فيندرج فيه تيسير
طريق تلقى الوحى والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية مما يتعلق بتكميل
نفسه عليه الصلاة والسلام وتكميل غيره كما تفصح عنه الفاء فى قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) ٩
أى فذكر الناس حسبما يسرناك له بما يوحى إليك واهدهم إلى مافى تضاعيفه من الأحكام الشرعية كما
كنت تفعله لابعد ما استتب لك الأمر كما قيل وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم طالما كان يذكرهم ويستفرغ فيه غاية المجهود ويتجاوز فى الجد كل حد معهود حرصاً
على إيمانهم وما كان يزيد ذلك بعضهم إلا كفراً وعناداً فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يخص التذكير
بمواد النفع فى الجملة بأن يكون من يذكره كلا أو بعضاً ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه فى تذكير
من لايورثه التذكير إلا عتواً ونفوراً من المطبوع على قلوبهم كما فى قوله تعالى فذكر بالقرآن من
يخاف وعيد وقوله تعالى فأعرض عمن تولى عن ذكرنا وقيل هو ذم للمذكرين وإخبار عن حالهم
واستبعاد لتأثير التذكير فيهم وتسجيل عليهم بالطبع على قلوبهم كقولك للواعظ عظ المكاسين إن
سمعوا منك قصداً إلى أنه مما لايكون والأول أنسب لقوله تعالى (سيذكر من يخشى) أى سيتذكر ١٠
بتذكيرك من من شأنه أن يخشى الله تعالى حق خشيته أو من يخشى الله تعالى فى الجملة فيزداد ذلك
بالتذكير فيتفكر فى أمر ما تذكر به فيقف على حقيته فيؤمن به وقيل إن بمعنى إذ كما فى قوله تعالى
وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين أى إذ كنتم وقيل هى بمعنى ما أى فذكر ما نفعت الذكرى فإنها لاتخلو

وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٨٧ الأعلىٰ

ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ٨٧ الأعلىٰ

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ٨٧ الأعلىٰ

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ٨٧ الأعلىٰ

وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ٨٧ الأعلىٰ

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ ٨٧ الأعلىٰ

وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ ٨٧ الأعلىٰ

عن نفع بكل حال وقيل هناك محذوف والتقدير إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع كقوله تعالى سرابيل
١١ تقيكم الحر قاله الفراء والنحاس والجرجانى والزهراوى (ويتجنبها) أى الذكرى (الأشقى) من
الكفرة لتوغله فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن أبى
١٢ ربيعة (الذى يصلى النار الكبرى) أى الطبقة السفلى من طبقات النار وقيل الكبرى نار جهنم والصغرى
١٣ نار الدنيا لقوله عليه الصلاة والسلام ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم (ثم لا يموت فيها)
* حتى يستريح (ولا يحيى) حياة تنفعه وثم للتراخى فى مراتب الشدة لأن التردد بين الموت والحياة أفظع
١٤ من الصلى (قد أفلح) أى نجا من المكروه وظفر بما يرجوه (من تزكى) أى تطهر من الكفر والمعاصى
بتذكره واتعاظه بالذكرى أو تكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو النماء وقيل تطهر للصلاة
وقيل تزكى تفعل من الزكاة وكلمة قد لما أن عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكرى فى الآخرة
١٥ يتوقع السامع الإخبار بحسن حال المتذكر فيها وينتظره (وذكر اسم ربه) بقلبه ولسانه (فصلى) أقام
الصلوات الخمس كقوله تعالى أقم الصلاة لذكرى أو كبر تكبيرة الافتتاح فصلى وقيل تزكى أى تصدق
١٦ صدقة الفطر وذكر اسم ربه أى كبره يوم العيد فصلى أى صلاته (بل تؤثرون الحياة الدنيا) إضراب
عن مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل إثر بيان ما يؤدى إلى الفلاح لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات
العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها والخطاب إما للكفرة فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان
بها والإعراض عن الآخرة بالكلية كما فى قوله تعالى إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا
واطمأنوا بها الآية أو للكل فالمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكروما لا يخلو عنه الإنسان غالباً من ترجيح
جانب الدنيا على الآخرة فى السعى وترتيب المبادى والالتفات على الأول لتشديد التوبيخ وعلى الثانى
١٧ كذلك فى حق الكفرة وتشديد العتاب فى حق المسلمين وقرىء يؤثرون بالياء وقوله تعالى (والآخرة

إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ ٨٧ الأعلى

صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ٨٧ الأعلى

خير وأبقى) حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ والعتاب أى تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير فى نفسها لما أن نعيمها مع كونه فى غاية مايكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة أبدى لا انصرام له وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره
١٨ (إن هذا) إشارة إلى ماذكر من قوله تعالى قد أفلح من تزكى وقيل إلى مافى السورة جميعاً (لفى الصحف
١٩ الأولى) أى ثابت فيها معناه (صحف إبراهيم وموسى) بدل من الصحف الأولى وفى إبهامها ووصفها
بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها مالا يخفى . روى أن جميع ما أنزل الله عز وجل من كتاب مائة وأربعة كتب أنزل على آدم عليه السلام عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف عليهم السلام والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام .

سورة الاعلى جل وعلا

وتسمى سورة سبح والجمهور على أنها مكية وحكى ابن الفرس عن بعضهم أنها مدنيـة لذكر صلاة العيـد وزكاة الفطر فيها ورده الجلال السيوطي بما أخرج البخاري وابن سعد وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرئاننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في عشرين ثم جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به عليه الصلاة والسلام حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء فما جاء عليه الصلاة والسلام حتى قرأت سبح اسم ربك الأعلى في سور مثلها ثم ان ذكر صلاة العيد وزكاة الفطر فيها غير مسلم ولو سلم فلا دلالة فيه على ذلك كما سيأتي ان شاء الله تعالى تفصيله وهي تسع عشرة آية بلا خلاف ووجه مناسبتها لما قبلها أنه ذكر في سورة الطارق خلق الانسان وأشير الى خلق النبات بقوله تعالى والارض ذات الصدع وذكرا هنا في قوله تعالى خلق فسوى وقوله سبحانه أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى وقصة النبات هنا أوضح وأبسط كما أن قصة خلق الانسان

هناك كذلك نعم ان ما في هذه السورة أعم من جهة شموله للانسان وسائر المخلوقات وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يحبها أخرج الامام أحمد والبزار وابن مردويه عن على كرم الله تعالى وجهه قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب هذه السورة سبح اسم ربك الاعلى وجاء في حديث أخرجه أبو عبيد عن أبى تميم أنه عليه الصلاة والسلام سماها أفضل المسبحات وأخرج أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقى عن عائشة قالت كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ في الوتر في الركعة الاولى سبح وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد والمعوذتين وفي حديث أخرجه المذكورون وغيرهم الا الترمذى عن أبى بن كعب نحو ذلك بيد أنه ليس فيه المعوذتان وأخرج ابن أبى شيبة والامام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة سبح اسم ربك الاعلى وهل أتاك حديث الغاشية وان وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا وأخرج الطبرانى عن عبد الله بن الحرث قال آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المغرب فقرأ في الركعة الاولى بسبح اسم ربك الاعلى وفي الثانية بقل ياأيها الكافرون ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ أى نزه أسماءه عز وجل عما لا يليق فلا تؤول مما ورد منها اسما من غير مقتض ولا تبقه على ظاهره اذا كان ماوضع له مما لا يصح له تعالى ولا تطلقه على غيره سبحانه اصلا اذا كان مختصا كالاسم الجليل أو على وجه يشعر بانه تعالى والغير فيه سواء اذ لم يكن مختصا فلا تقل لمن أعطاك شيئاً مثلا هذا رازقى على وجه يشعر بذلك وصنه عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به كالخلاء وحالة التغوط وذكره لا على وجه الخشوع والتعظيم وربما يعد مما لا يليق ذكره عند من يكره سماعه من غير ضرورة اليه وعن الامام مالك رضى الله تعالى عنه انه كان اذا لم يجد ما يعطى السائل يقول ماعندى ما أعطيك أو ائتنى في وقت آخر أو نحو ذلك ولا يقول نحو ما يقول الناس يرزقك الله تعالى أو يبعث الله تعالى لك أو يعطيك الله تعالى أو نحوه فسئل عن ذلك فقال ان السائل أثقل شىء على سمعه وأبغضه اليه قول المسئول له ما يفيده رده وحرمانه فانا أجل اسم الله سبحانه من أن أذكره لمن يكره سماعه ولو فى ضمن جملة وهذا منه رضى الله تعالى عنه غاية في الورع وما ذكر من التفسير مبنى على الظاهر من ان لفظ اسم غير مقحم وذهب كثير الى انه مقحم وهو قديقحم لضرب من التعظيم على سبيل الكناية ومنه قول لبيد

☆ الى الحول ثم اسم السلام عليكما ☆ فالمعنى نزه ربك عما لا يليق به من الاوصاف واستدل لهذا بما أخرجه الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهنى قال لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم (١) ومن المعلوم أن المجعول فيهما سبحان ربى العظيم وسبحان ربى الأعلى وبما أخرج الامام أحمد وأبو داود والطبرانى والبيهقى في سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان اذا قرأ سبح اسم ربك الاعلى قال سبحان ربى الأعلى وروى عبد بن حميد وجماعة أن عليا كرم الله تعالى وجهه قرأ ذلك فقال سبحان ربى الأعلى وهو في الصلاة فقيل له أتزيد في القرآن قال لا انما أمرنا بشىء ففعلته وفي الكشاف تسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح فيه من المعانى التى هي الحاد في أسمائه سبحانه كالجبر والتشبيه مثلا وان يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم

(١) وفي الكشاف وكانوا يقولون في الركوع اللهم لك ركعت وفى السجود اللهم لك سجدت وليس في هذا الحديث المروى عمن سمعت اه

لجمل المعنيين على ما قيل راجعين الى الاسم وان كان الاول بالحقيقة راجعا اليه عز وجل لكن كما يصح أن يقال نزه الذات عما لا يصح له من الاوصاف أن يقال أيضا نزه أسماءه تعالى الدالة على الكمال عما لا يصح فيه من خلافه وليس المعنى الاول مبنيا على أن لفظ اسم مقحم ولا على أن المراد به المسمى اطلاقا لاسم الدال على المدلول نعم قال به بعضهم هنا وهو ان كان للاخبار السابقة كما في دعوى الاقحام فلا بأس وان كان لظن أن التسبيح لا يكون للالفاظ الموضوعة له تعالى فليس بشيء لفساد هذا الظن بظهور أن التسبيح يكون لها كما سمعت وقد قال الامام انه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته جل وعلا عن النقائص يجب تنزيه الالفاظ الموضوعة لذلك عن الرفث وسوء الادب ومن هذا يعلم ما في التعبير عنه تعالى شأنه بنحو ليلى ونعم كما يدعى ذلك في قول ابن الفارض قدس سره

أبرق بدا من جانب الغور لامع * أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

وقوله اذا أنعمت نعم على بنظرة * فلا أسعدت سعدى ولا أجملت جمل

الى غير ذلك من أبياته وقد عاب ذلك بعض الاجلة وعده من سوء الادب ومخالفا لقوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها الآية وأجاب بعضهم بان ذلك ليس من الوضع في شيء وفهم الحضرة الالهية من تلك الالفاظ انما هو بطريق الاشارة كما قالوا في فهم النفس الامارة من البقرة مثلا في قوله تعالى ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة والمنكر لايقنع بهذا والاظهر أن يقال ان الكلام المورد فيه ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية ولا نظر فيها الى تشبيه المفردات بالمفردات فليس فيه التعبير عنه عز وجل بليلى ونحوها واستعمال الاستعارة التمثيلية في شأنه تعالى مما لابأس به حتى انهم قالوه في البسملة كما لا يخفى على من تتبع رسائلهم فيها هذا ولعل عندهم خيرا منه وقال جمع الاسم بمعنى التسمية والمعنى نزه تسمية ربك بان تذكره وأنت له سبحانه معظم ولذكره جل شأنه محترم وانت تعلم ان هذا يندرج في تسبيح الاسم كما تقدم وعن ابن عباس ان المعنى صل باسم ربك الاعلى كما تقول ابدأ باسم الله تعالى وحذف حرف الجر حكاه في البحر ولا أظن صحته وقال عصام الدين لايبعد أن يراد الاسم الاثر أي سبح آثار ربك الاعلى عن النقصان فان أثره تعالى دال عليه سبحانه كالاسم فيكون منعا عن عيب المخلوقات أي من حيث انها مخلوقة له تعالى وعلى وجه ينافي قوله تعالى ماترى في خلق الرحمن من تفاوت ولا يخفى بعده وان كان فيما بعد من الصفات ما يستأنس به له وأنا أقول ان كان سبح بمعنى نزه فكلا الامرين من كون اسم مقحما وكونه غير مقحم وتعلق التسبيح به على الوجه الذي سمعت محتمل غير بعيد واذا كان معناه قل سبحان كما هو المعروف فيما بينهم فكونه مقحما متعين اذ لم يسمع سلفا وخلفا من يقول سبحان اسم ربي الاعلى أو سبحان اسم الله والاخبار ظاهرة في ذلك وحمل ما فيها على اختيار الاخصر المستلزم لغيره كما ترى ويؤيد هذا قراءة ابي بن كعب كما في خبر سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن جبير سبحان ربي الاعلى واما ماقيل من ان الاسم عين المسمى واستدل عليه بهذه الآية ونحوها فهو مما لايعول عليه أصلا وقد تقدم الكلام أول الكتاب فارجع اليه ان أردته والاعلى صفة للرب وأريد بالعلو العلو بالقهر والاقتدار لا بالمكان لاستحالته عليه سبحانه والسلف وان لم يؤولوه بذلك لكنهم أيضا يقولون باستحالة العلو المكاني عليه عز وجل وجوز جعله صفة لاسم وعلوه ترفعه عن أن يشاركه اسم في حقيقة معناه واستشكل بان قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ الخ ان كان صفة للرب كما هو الظاهر لزم الفصل بين الموصوف وصفته بصفة غيره وهو لا يجوز فلا يقال رأيت غلام هند العاقل الحسنة وان كان صفة لاسم أيضا اختل المعنى اذ الاسم لايتصف بالخلق ومابعده

واجيب باختيار الثانى ولا اختلال اما لان الاسم بمعنى المسمى أو لانه لما كان مقحما كان اسم ربك بمنزلة ربك فصح وصفه بما يوصف به الرب عز وجل وفيه نظر والجواب المقبول إن الذى على ذلك التقدير امام رفوع على انه خبر مبتدا محذوف أو منصوب على المدح ومفعول خلق محذوف ولذا قيل بالعموم أى الذى خلق كل شىء ﴿ فَسَوَّى ﴾ أى فجعله متساويا وهو أصل معناه والمراد فجعل خلقه كما تقتضيه حكمته سبحانه فى ذاته وصفاته وفى معناه ماقيل أى فجعل الاشياء سواء فى باب الاحكام والاتقان لانه سبحانه أتقن بعضا دون بعض ورد بما دلت عليه الآية من العموم على المعتزلة فى زعمهم ان العبد خالق لافعاله والزمخشرى مع أن مذهبه مذهبهم قال هنا بالعموم ولعله لم يرد العموم الحقيقى أو أراده لكن على معنى خالق كل شىء اما بالذات او بالواسطة وجعل ذلك فى أفعال العباد باقداره سبحانه وتمكينهم على خلقها باختيارهم وقدرهم الموهوبة لهم وعن الكلبى خلق كل ذى روح فسوى بين يديه وعينيه ورجليه وعن الزجاج خلق الانسان فعدل قامته ولم يجعله منكوسا كالبهائم وفي كل تخصيص لا يقتضيه ظاهر الحذف ﴿ وَالَّذِى قَدَّرَ ﴾ اى جعل الاشياء على مقادير مخصوصة فى اجناسها وأنواعها وأفرادها وصفاتها وأفعالها وآجالها ﴿ فَهَدَى ﴾ فوجه كل واحد منها الى مايصدر عنه وينبغى له طبعا أو اختياراً ويسره لما خلق له بخلق الميول والالهامات ونصب الدلائل وانزال الايات فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت فى كل منها ما تحار فيه العقول وتضيق عنه دفاتر النقول وأما فنون هداياته سبحانه وتعالى للانسان على الخصوص ففوق ذلك بمراحل وابعد منه ثم ابعد وابعد بالوف من المنازل وهيهات ان يحيط بها فلك العبارة والتحرير ولا يكاد يعلمها الا اللطيف الخبير

اتزعم انك جرم صغير ✡ وفيك انطوى العالم الاكبر

وقيل أى والذى قدر الخلق على ماخلقهم فيه من الصور والهيئات وأجرى لهم أسباب معاشهم من الارزاق والاقوات ثم هداهم الى دينه ومعرفة توحيده باظهار الدلالات والبينات وقيل قدر أقواتهم وهداهم لطلبها وعن مقاتل والكلبى قدرهم ذكرانا واناثا وهدى الذكر كيف يأتى الانثى وعن مجاهد قدر الانسان والبهائم وهدى الانسان للخير والشر والبهائم لمراتع وعن السدى قدر الولد فى البطن تسعة أشهر أو أقل أو أكثر وهداه للخروج منه للتمام وقيل قدر المنافع فى الاشياء وهدى الانسان لاستخراجها والاولى ماذكر أولا ولعل مافى سائر الاقوال من باب التمثيل لا التخصيص وزعم الفراء أن فى الآية اكتفاء والاصل فهدى وأضل وليس بشىء وقرأ الكسائى قدر بالتخفيف من القدرة أو التقدير ﴿ وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ أى أنبت ما ترعاه الدواب غضارطبا يرف ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً ﴾ هو ما يقذف به السيل على جانب الوادى من الحشيش والنبات وأصله على مافى المجمع الاخلاط من اجناس شتى والعرب تسمى القوم إذا اجتمعوا من قبائل شتى أخلاطا وغثاء ويقال غثاء بالتشديد وجاء جمعه على أغثاء وهو غريب من حيث جمع فعال على أفعال والمراد به هنا اليابس من النبات أى فجعله بعد ذلك يابسا ﴿ أَحْوَى ﴾ من الحوة وهى كما قيل السواد وقال الأعلم لون يضرب الى السواد وفى الصحاح الحوة السمرة فالمراد باحوى أسود أو أسمر والنبات اذا يبس اسود أو اسمر فهو صفة مؤكدة للغثاء وتفسر الحوة بشدة الخضرة وعليه قول ذى الرمة

لمياء فى شفتيها حوة لعس ✡ وفى اللثات وفى انيابها شنب

ولا ينافى ذلك تفسيرها بالسواد لان شدة الخضرة ترى فى بادىء النظر كالسواد وجوز كونه حالا من المرعى أى أخرج المرعى حال كونه طريا غضا شديد الخضرة فجعله غثاء والفصل بالمعطوف بين الحال وصاحبها ليس فصلا بأجنبى لاسيما وهو حال يعاقب الاول من غير تراخ وسر التقديم المبالغة فى استعقاب حالة الجفاف حالة الرفيف

والنضارة كأنه قبل ان يتم رفيفه وغضارته يصير غثاء ومع هذا هو خلاف الظاهر وهذه الاوصاف على ما قيل يتضمن كل منها التدريج فني الوصف بها تحقيق لمعنى التربية وهي تبليغ الشيء كماله شيئاً فشيئاً وقوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ بيان لهدايته تعالى شأنه الخاصة برسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أثر بيان هدايته عز وجل العامة لكافة مخلوقاته سبحانه وهي هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقي الوحي وحفظ القرآن الذي هو هدى للعالمين وتوفيقه صلى الله تعالى عليه وسلم لهداية الناس أجمعين والسين اما للتأكيد واما لان المراد اقراء ما أوحي اليه صلى الله تعالى عليه وسلم حينئذ وما سيوحى اليه عليه الصلاة والسلام بعد فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالاقراء واسناد الاقراء اليه تعالى مجازي أي سنقرئك ما نوحي اليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام فانه عليه السلام الواسطة في الوحي على سائر كيفياته فلا تنسى أصلا من قوة الحفظ والاتقان مع أنك أمي لم تكن تدري ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك لك آية مع ما في تضاعيف ما تقرؤه من الآيات البينات من حيث الاعجاز ومن حيث الاخبار بالغيبيات وجوز أن يكون المعنى سنجعلك قارئاً بالهام القراءة أي في الكتاب من دون تعليم أحد كما هو العادة فقد روي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ الكتابة ولا يكتب ويكون المراد بقوله تعالى فلا تنسى نفي النسيان مطلقاً عنه عليه الصلاة والسلام امتناناً عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بانه أوتي قوة الحفظ وفيه أنه مع كونه خلاف المأثور عن السلف في الآية تأباه فاء التفريع وجوز أيضاً أن يكون المراد نفي نسيان المضمون أي سنقرئك القرآن فلا تغفل عنه فتخالفه في أعمالك ففيه وعد بتوفيقه عليه الصلاة والسلام لالتزام ما فيه من الاحكام وهو كما ترى وقيل فلا تنسى نهي والالف لمراعاة الفاصلة كما في قوله تعالى وأضلونا السبيلا وفيه أن النسيان ليس بالاختيار فلا ينهى عنه إلا أن يراد مجازاً ترك أسبابه الاختيارية أو ترك العمل بما تضمنه المقرأ وفيه ارتكاب تكلف من غير داع وأيضاً رسمه بالياء يقتضي أنها من البنية لا للاطلاق وكون رسم المصحف مخالفاً تكلف أيضاً نعم قيل رسمت ألف الاطلاق ياء لموافقة غيرها من الفواصل وموافقة أصلها مع أن الامام المرزوقي صرح بانه عند الاطلاق ترد المحذوفة وقيل هو نهي لكن لم تحذف الالف فيه إذ قد لا يحذف الجازم حرف العلة وحسن ذلك هنا مراعاة الفاصلة وفيه أيضا ما فيه والاهون للطالب معنى النهي أن يقول هو خبر أريد به النهي على أحد التأويلين السابقين آنفا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي لا تنسى أصلا مما سنقرئك شيئاً من الاشياء الا ما شاء الله أن تنساه قيل أي أبدا قال الحسن وقتادة وغيرهما وهذا مما قضى الله تعالى نسخه وأن يرتفع حكمه وتلاوته والظاهر أن النسيان على حقيقته وفي الكشاف أي إلا ما شاء الله فذهب به عن حفظك برفع حكمه وتلاوته وجعل النسيان عليه بمعنى رفع الحكم والتلاوة وكناية عنه لان ما رفع حكمه وتلاوته يترك فينسى فكأنه قيل بناء على إرادة المعنيين في الكنايات سنقرئك القرآن فلا تنسى شيئاً منه ولا يرفع حكمه وتلاوته الا ما شاء الله فتنساه ويرفع حكمه وتلاوته أو نحو هذا وأنا لا أرى ضرورة إلى اعتبار ذلك والباء في برفع الخ للسببية والمراد إما بيان السبب العادي البعيد لذهاب الله تعالى به عن الحفظ فان رفع الحكم والتلاوة يؤدي عادة في الغالب الى ترك التلاوة لعدم التعبد بها وإلى عدم اخطاره في البال لعدم بقاء حكمه وهو يؤدي عادة في الغالب أيضاً إلى النسيان أو بيان السبب الداعي لاستبعاد الذهاب به عن حفظه عليه الصلاة والسلام وهو كالسبب المجوز لذلك وأيا ما كان فلا حاجة إلى جعل معنى فلا تنسى فلا تترك تلاوة شيء منه والعمل به فتأمل ثم انه لا يلزم من كون ما شاء الله تعالى نسيانه مما قضى سبحانه ان يرتفع

حكمه وتلاوته أن يكون كل ماارتفع حكمه وتلاوته قد شاء الله تعالى نسيان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له فان من ذلك مايحفظه العلماء الى اليوم فقد أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات الحديث وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم نسى الجميع بعد تبليغه وبقى مابقى عند بعض من سمعه منه عليه الصلاة والسلام فنقل حتى وصل الينا بعيد وان أمكن عقلا وقيل كان صلى الله تعالى عليه وسلم يعجل بالقراءة اذا لقنه جبريل عليه السلام فقيل لا تعجل فان جبريل عليه السلام مأمور أن يقرأه عليك قراءة مكررة الى أن تحفظه ثم لا تنساه الا ماشاء الله تعالى ثم تذكره بعد النسيان وأنت تعلم أن الذكر بعد النسيان وان كان واجبا الا أن العلم به لا يستفاد من هذا المقام وقيل ان الاستثناء بمعنى القلة وهذا جار في العرف كأنه قيل الا ما لا يعلم لان المشيئة مجهولة وهو لامحالة أقل من الباقي بعد الاستثناء فكأنه قيل فلا تنسى شيئا الاشيئا قليلا وقد جاء في صحيح البخارى وغيره أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أسقط آية في قراءته في الصلاة وكانت صلاة الفجر فحسب أبى أنها نسخت فسأله عليه الصلاة والسلام فقال نسيتها ثم أنه عليه الصلاة والسلام لا يقر على نسيانه القليل أيضا بل يذكره الله تعالى أو ييسر من يذكره ففى البحر أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال حين سمع قراءة عباد بن بشير لقد ذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا وكذا وقيل الاستثناء بمعنى القلة وأريد بها النفي مجازا كما في قولهم قل من يقول كذا قيل والكلام عليه من باب *ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم* البيت والمعنى فلا تنسى الا نسيانا معدوما وفي الحواشي العصامية على انوار التنزيل ان الاستثناء على هذا الوجه لتأكيد عموم النفي لا لنقض عمومه وقد يقال الاستثناء من أعم الاوقات أى فلا تنسى في وقت من الاوقات الاوقت مشيئة الله تعالى نسيانك لكنه سبحانه لايشاء وهذا كما قيل في قوله تعالى في أهل الجنة خالدين فيها مادامت السموات والارض الا ماشاء ربك وقد قدمنا ذلك والى هذا ذهب الفراء فقال انه تعالى ماشاء أن ينسى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شيئا الا ان المقصود من الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصيره عليه الصلاة والسلام ناسياً لذلك لقدر عليه كما قال سبحانه ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم انا نقطع بانه تعالى ماشاء ذلك وقال له صلى الله تعالى عليه وسلم لئن أشركت ليحبطن عملك مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يشرك البتة وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء ان يعرفه الله تعالى قدرته حتى يعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أن عدم النسيان من فضله تعالى واحسانه لامن قوته أى حتى يتقوى ذلك جداً أو ليعرف غيره ذلك وكأن نفي أن يشاء الله تعالى نسيانه عليه الصلاة والسلام معلوم من خارج ومنه آية لاتحرك به لسانك لتعجل به الآية وقد أشار أبو حيان الى ماقاله الفراء والى الوجه الذى قبله وأباهما غاية الاباء لعدم الوقوف على حقيقتهما وقال لاينبغي أن يكون ذلك في كلام الله تعالى بل ولافي كلام فصيح وهو مجازفة منه عفا الله تعالى عنه ثم ان المراد من نفي نسيان شيء من القرآن نفي النسيان التام المستمر مما لا يقر عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كالذى تضمنه الخبر السابق ليس كذلك وقد ذكروا أنه عليه الصلاة والسلام لا يقر على النسيان فيما كان من أصول الشرائع والواجبات وقد يقر على ماليس منها أو منها وهو من الآداب والسنن ونقل هذا عن الامام الرازى عليه الرحمة فليحفظ والالتفات الى الاسم الجليل على سائر الاوجه لتربية المهابة والايذان بدوران المشيئة على عنوان الالوهية المستتبعة لسائر الصفات وربط الآية بما قبلها على الوجه الذى ذكرناه هو الذى اختاره في الارشاد وقال ابو حيان انه سبحانه لما امره صلى الله تعالى عليه وسلم بالتسبيح وكان لا يتم الا بقراءة ما انزل عليه من القرآن وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يتفكر في نفسه مخافة أن ينسى أزال سبحانه عنه ذلك بانه عز وجل يقرئه وأنه لا ينسى إلا

ماشاء أن ينسيه لمصلحة وفيه نظر لا يخفى ولو قيل ان سنقرئك استئناف واقع موقع التعليل للتسبيح أوللامر به فيفيد جلالة الاقراء وأنه مما ينبغي أن يقابل بتنزيه الله تعالى واجلاله كان أهون مماذكر ونحوه كونه في موقع التعليل على معنى هي ْ نفسك للافاضة عليك بتسبيح الله تعالى لأنا سنقرئك فلاتنسى الاما شاء الله ويتضمن ذلك الاشارة إلى فضل التسبيح وقد وردت أخبار كثيرة في ذلك وذكر الثعلبي بعضامنها ونقله ابن الشيخ في حواشيه على تفسير البيضاوي والله تعالى أعلم بصحته ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ تعليل لماقبله والجهر ما ظهر قولاأو فعلا أوغيرها وليس خاصا بالاقوال بقرينة المقابلة أي أنه تعالى يعلم ما ظهر وما بطن من الامور التي من جملتها حالك وحرصك على حفظ ما يوحى اليك بأسره فيقرئك ما يقرئك ويحفظك عن نسيان ما شاء منه وينسيك ما شاء منه مراعاة لما نيط بكل من المصالح والحكم التشريعية وقيل توكيد لجميع ما تقدمه وتوكيد لما بعده وقيل توكيد لقوله تعالى سنقرئك الخ على أن الجهر ما ظهر من الاقوال أي يعلم سبحانه جهرك بالقراءة مع جبريل عليه السلام وما دعاك اليه من مخافة النسيان فيعلم ما فيه الصلاح من ابقاء وانساء أو فلا تخف فاني أكفيك ما تخاف وقيل انه متعلق بقوله تعالى (سبح اسم ربك الاعلى) وهذا ليس بشيء كما ترى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ عطف على سنقرئك كما ينبيء عنه الالتفات الى الحكاية وما بينهما اعتراض وارد لما سمعت وتعليق التيسير به صلى الله تعالى عليه وسلم مع أن الشائع تعليقه بالامور المسخرة للفاعل كما في قوله تعالى (ويسر لي أمري) للايذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها أي نوفقك توفيقا مستمرا للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علما وتعليما واهتداء وهداية فيندرج فيه تيسير تلقي طريق الوحي والاحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الآلهية مما يتعلق بتكميل نفسه الكريمة صلى الله تعالى عليه وسلم وتكميل غيره كما يفصح عنه الفاء فيما بعد كذا في الارشاد وقيل المراد باليسرى الطريقة التي هي أيسر وأسهل في حفظ الوحي وقيل هي الشريعة الحنيفية السهلة وقيل الامور الحسنة في أمر الدنيا والآخرة من النصر وعلو المنزلة والرفعة في الجنة وضم اليها بعض أمر الدين وهو مع هذا الضم تعميم حسن وظاهر عليه أيضا أمر الفاء في قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي فذكر الناس حسبما يسرناك بما يوحى اليك واهدهم الى ما في تضاعيفه من الاحكام الشرعية كما كنت تفعله وقيل أي فذكر بعد مااستتب أي استقام وتهيأ لك الامر فان أراد قدم على التذكير بعد ما استقام لك الامر من اقرائك الوحي وتعليمك القرآن بحيث لا تنسى منه الا ما اقتضت المصلحة نسيانه وتيسيرك للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين فذاك والا فليس بشيء وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان قد ذكر وبالغ فيه فلم يدع في القوس منزعا وسلك فيه كل طريق فلم يترك مضيقا ولا مهيعا حرصا على الايمان وتوحيد الملك الديان وما كان يزيد ذلك بعض الناس الا كفرا وعنادا وتمردا وفسادا فأمر صلى الله تعالى عليه وسلم تخفيفا عليه حيث كاد الحرص على ايمانهم يوجه سهام التلف اليه كما قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا بأن يخص التذكير بمواد النفع في الجملة بأن يكون من يذكره كلا أو بعضا ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه الكريمة في تذكير من لا يورثه التذكير الا عتوا ونفورا وفسادا وغرورا من المطبوع على قلوبهم كما في قوله تعالى فذكر بالقرآن من يخاف وعيد وقوله سبحانه فأعرض عمن تولى عن ذكرنا وعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم بمن طبع على قلبه باعلام الله تعالى اياه عليه الصلاة والسلام به فهو صلى الله تعالى عليه وسلم بعد التبليغ والزام الحجة

لا يجب عليه تكرير التذكير على من علم أنه مطبوع على قلبه فالشرط على هذا على حقيقته وقيل انه ليس كذلك وانما هو استبعاد النفع بالنسبة الى هؤلاء المذكورين نعيا عليهم بالتصميم كأنه قيل افعل ماأمرت به لتؤجر وان لم ينتفعوا به وفيه تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم ورجح الاول بأن فيه ابقاء الشرط على حقيقته مع كونه أنسب بقوله تعالى ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ أى سيذكر بتذكيرك من من شأنه أن يخشى الله تعالى حق خشيته أومن يخشى الله تعالى فى الجملة فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكر فى أمر ما تذكره به فيقف على حقيته فيؤمن به وقيل ان ان بمعنى اذ كما فى قوله تعالى وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين أى اذ كنتم لانه سبحانه لم يخبرهم بكونهم الاعلون الا بعد إيمانهم وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى زيارة أهل القبور وانا ان شاء الله تعالى بكم لاحقون وأثبت هذا المعنى لها الكوفيون احتجاجا بما ذكر ونظائره وأجاب النافون عن ذلك بما فى المغنى وغيره وقيل هى بمعنى قد وقد قال بهذا المعنى قطرب وقال عصام الدين المراد أن التذكير ينبغى أن يكون بما يكون مهما له التذكير فينبغى تذكير الكافرين بالايمان لا بالفروع كالصلاة والصوم والحج اذ لا تنفعه بدون الايمان وتذكير المؤمن التارك للصلاة بها دون الايمان مثلا وهكذا فكانه قيل ذكر كل واحد بما ينفعه ويليق به وقال الفراء والنحاس والجرجانى والزهراوى الكلام على الاكتفاء والاصل فذكر ان نفعت الذكرى وان لم تنفع كقوله تعالى سرابيل تقيكم الحر والظاهر أن الذين لا يقولون بمفهوم المخالفة سواء كان مفهوم الشرط أو غيره لا يشكل عليهم أمر هذه الآية كما لا يخفى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أى ويتجنب الذكرى ويتحاماها ﴿الأَشْقَى﴾ وهو الكافر المصر على انكار المعاد ونحوه الجازم بنفى ذلك مما يقتضى الخشية بوجه وهو أشقى أنواع الكفرة وقيل المراد به الكافر المتوغل فى عداوة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وقد روى أن الآية نزلت فيهما فانه أشقى من غير المتوغل وقيل المراد به الكافر مطلقا فانه أشقى من الفاسق وقيل المفضل عليه كفرة سائر الامم فانه حيث كان المؤمن من هذه الامة أسعد من مؤمنيهم كان الكافر منها أشقى من كافريهم والاوجه عندى فى المراد بالاشقى ما تقدم ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أى الطبقة السفلى من أطباق النار كما قال الفراء ولا بعد فى تفاضل نار الآخرة وكون بعض منها أكبر من بعض وأشد حرارة وقال الحسن الكبرى نار الآخرة والصغرى نار الدنيا ففى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا ناركم هذه جزء من سبعين جزأ من نار جهنم وفى رواية للامام أحمد عنه مرفوعا أيضا ان هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم فلعل السبعين وارد مورد التكثير وهو كثير ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ أى حياة تنفعه وقيل ان روح أحدهم تصير فى حلقه فلا تخرج فيموت ولا ترجع الى موضعها من الجسد فيحيا وهو غير غنى عن التقييد بنحو حياة كاملة على أنه بعد لا يخلو عن بحث وثم للتراخى فى الرتبة فان هذه الحالة أفظع وأعظم من نفس الصلى وقال عصام الدين يحتمل ان يكون هذا الكلام كناية عن عدم النجاة لان النجاة عن العذاب انما يكون بالعمل فى دار يموت فيها العامل ويحيا والنظم أقرب الى هذا المعنى كيف واللائق بالمعنى السابق ثم لا يكون ميتا فيها ولا حيا فتأمل انتهى وفى كون اللائق بالمعنى السابق ماذكره دون ما فى النظم الجليل منع ظاهر والظاهر أنه لائق به مع تضمنه رعاية الفواصل وكذا فى توجيه كون ماذكر كناية عن عدم النجاة خفاء وكانه لذلك أمر بالتأمل وقد يقال ان مثل ذلك الكلام يقال لمن وقع فى شدة واستمر فيها فلا يبعد أن يكون فيه اشارة الى خلودهم فى العذاب وأمر التراخى الرتبى عليه ظاهر أيضا لظهور أن الخلود فى النار الكبرى أفظع من دخولها وصليها واعلم ان عدم الموت فى النار على ما صرح به غير واحد مخصوص بالكفرة وأما عصاة المؤمنين الذين يدخلونها

فيموتون فيها واستدل لذلك بما أخرجه مسلم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم الله تعالى اماتة حتى اذا كانوا فحما أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على انهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء فينبتون نبات الحبة في حميل السيل قال الحافظ ابن رجب انه يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة وتفارق أرواحهم أجسادهم وأيد بتأكيد الفعل بالمصدر في قوله عليه الصلاة والسلام فأماتهم الله تعالى اماتة وأظهر منه ما أخرجه البزار عن أبي هريرة مرفوعا ان أدنى أهل الجنة حظا أو نصيبا قوم يخرجهم الله تعالى من النار فيرتاح لهم الرب تبارك وتعالى وذلك أنهم كانوا لا يشركون بالله تعالى شيئاً فينبذون بالعراء فينبتون كما ينبت البقل حتى اذا دخلت الارواح أجسادهم فيقولون ربنا كما أخرجتنا من النار وأرجعت الارواح الى أجسادنا فاصرف وجوهنا عن النار فيصرف وجوههم عن النار وهذه الامانة على ما اختاره غير واحد بعد أن يذوقوا ما يستحقونه من عذابها بحسب ذنوبهم كما يشعر به حديث مسلم وابقاؤهم فيها ميتين الى أن يؤذن بالشفاعة لا يبجابه تأخير دخولهم الجنة تلك المدة كان تتمة لعقوبتهم بنوع آخر فتكون ذنوبهم قد اقتضت أن يعذبوا بالنار مدة ثم يحبسوا فيها من غير عذاب مدة فهم كمن أذنب في الدنيا ذنبا فضرب وحبس بعد الضرب جزاء لذنبه ولم يبقوا أحياء فيها من غير عذاب لخزنتها اما ليكون أبعد عن أن يهولهم رؤيتها أو لتكون الاماتة واخراج الروح من تتمة العقوبة أيضا وقال القرطبي يجوز أن تكون اماتتهم عند ادخالهم فيها ويكون ادخالهم وصرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبة لهم كالحبس في السجن بلا غل ولا قيد مثلا ويجوز أن يكونوا أمتألمين حالة موتهم نحو تألم الكافر بعد موته وقبل قيام الساعة ويكون ذلك أخف من تألمهم لو بقوا أحياء كما أن تألم الكافر بعد موته في قبره أخف من تألمه اذا أدخل النار بعد البعث وهو كما ترى وفي مطامح الافهام يجوز أن يراد بالاماتة المذكورة في الحديث الانامة وقد سمى الله تعالى النوم وفاة لان فيه نوعا من عدم الحس وفي الحديث المرفوع اذا أدخل الله تعالى الموحدين النار أماتهم فيها فاذا اراد سبحانه أن يخرجوا أمسهم العذاب تلك الساعة انتهى والمعول عليه ما ذكرناه أولا والله تعالى أعلم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أي نجا من المكروه وظفر بما يرجوه ﴿ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أي تطهر من الشرك بتذكره واتعاظه بالذكرى وحمله على ذلك مروى عن ابن عباس وغيره وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال في ذلك من شهد أن لا إله الا الله وخلع الانداد وشهد أني رسول الله واعتبر بعضهم أمرين فقال أي تطهر من الكفر والمعصية وعليه يجوز أن يكون ما تقدم من باب الاقتصار على الاهم وقيل تزكى أي تكثر من التقوى والخشية من الزكاة وهو النماء وقيل تطهر للصلاة وقيل آتى الزكاة وروى هذا عن أبي الاحوص وقتادة وجماعة ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ بلسانه وقلبه لا بلسانه مع غفلة القلب اذ مثل ذلك لا ثواب فيه فلا ينبغي أن يدخل فيما يترتب عليه الفلاح والذكر القلبي باستحضار اسمه تعالى في القلب وان كان ممدوحا بلا شبهة الا ان ارادته بخصوصه مما ذكر خلاف الظاهر وحكاه في مجمع البيان عن بعض وما روى عن ابن عباس من قوله أي ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه عز وجل ظاهر فيه وفي اقحام لفظ اسم وذهب بعض الحنفية الى ان المراد بهذا الذكر تكبيرة الافتتاح كانه قيل وكبر للافتتاح ﴿ فَصَلَّى ﴾ أي الصلوات الخمس كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس وروى ذلك في حديث مرفوع وقيل الصلاة المفروضة وما أمكن من النوافل واحتج بذلك على وجوب التكبيرة حيث نيط به الفلاح ووقع بين واجبين بل فرضين التزكي من الشرك والصلاة مع أن الاحتياط في العبادات واجب

فلا يضر الاحتمال وعلى ان الافتتاح جائز بكل اسم من اسمائه عز وجل وهو ظاهر وعلى أن التكبيرة شرط لاركن للعطف بالفاء وعطف الكل على الجزء كعطف العام على الخاص وان جاز لايكون بها مع انه لو سلم صحته بتكلف فلا بد له من نكتة ليدعى وقوعه في الكلام المعجز فحيث لم تظهر لم يصح ادعاؤه وبناء الركنية عليه والانصاف انه مع ما ممت احتجاج ليس بالقوى وقيل هو خصوص بسم الله الرحمن الرحيم قبل الصلاة وليس بشيء وعن على كرم الله تعالى وجهه تزكى أى تصدق صدقة الفطر وذكر اسم ربه كبر يوم العيد فصلى صلاة العيد وعن جماعة من السلف ما يقتضى ظاهره ذلك وتعقب بان الصلاة مقدمة على الزكاة في القرآن وان السورة مكية ولم يكن حينئذ عيد ولا فطر ورد بان ذلك اذا ذكرت باسمها أما اذا ذكرت بفعل فتقديمها غير مطرد ومنه فلا صدق ولا صلى على انه يجوز ان تكون مخالفة العادة ههنا للارشاد الى أن هذه الزكاة المقدمة قولا ينبغى تقديمها فعلا على الصلاة ولهذا كانوا يخرجونها قبل أن يصلوا العيد كما جاء في الآثار وكون السورة مكية غير مجمع عليه وعلى القول بمكيتها الذى هو الاصح يكون ذلك مما تاخر حكمه عن نزوله وأقول يجوز أن يقال تزكى أى تطهر من الشرك بان آمن بقلبه وذكر اسم ربه أى قال لا إله إلا الله فصلى أى الصلاة المفروضة وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ما يؤيده فيكون تزكى اشارة الى التصديق بالجنان وذكر اسم ربه الى النطق باللسان وصلى الى العمل بالاركان لما أن الصلاة عماد الدين وأفضل الاعمال البدنية وناهية عن الفحشاء والمنكر فلا بدع أن تذكر فيراد جمع الاعمال البدنية والعبادات القالية وقد يقال اقتصر على ذكر الصلاة لان الفرائض والواجبات البدنية لم تكن تامة يوم نزول السورة وكانت الصلاة أهم ما نزل ان كان نزل غيرها وقد روى عطاء عن ابن عباس ويزيد النحوى عن عكرمة والحسن بن أبى الحسن ان أول مانزل من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك ثم ن ثم المزمل ثم المدثر ثم تبت ثم اذا الشمس كورت ثم سبح اسم ربك ثم ان من رداف لا إله الا الله محمد رسول الله وكان ذكر الله تعالى المطلوب هو مجموع الجملتين فلا بعد في أن يراد من ذكره تعالى فى الآية واذا اعتبر الاتيان باسمه عز وجل في الجملة الثانية على الوجه الذى أتى به ذكراً له تعالى كان أمر الارادة أقرب وهذا الوجه لا يخلو عن حسن وكلمة قد لما انه عند الاخبار بسوء حال المتجنب عن الذكر في الآخرة يتوقع السامع الاخبار بحسن حال المتذكر فيها ولا يبعد أن تكون الجملة مستانفة استئنافا جوابا لسؤال نشا عن بيان حال المتجنب والسكوت عن حال المتذكر الذى يخشى فكانه قيل ما حال من تذكر فقيل قد أفلح الى آخره وكان الظاهر قد أفلح من تذكر الا أنه وضع من تزكى الى آخره موضع من تذكر اشارة الى بيان المتذكر بسماته وقوله تعالى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ﴾ اضراب عن مقدر ينساق اليه الكلام كأنه قيل اثر بيان ما يؤدى الى الفلاح لا تفعلون ذلك بل تؤثرون الخ ولعله مراد من قال انه اضراب عن قد أفلح الخ وقيل اضراب عن بيان حال المتذكر والمتجنب الى بيان أنه لا ينفع هذا البيان وأضعافه المتمردين على وجه يتضمن بيان سبب عدم النفع وهو ايثار الحياة الدنيا والخطاب على هذا للكفرة الاشقين من أهل مكة وعلى الاول يحتمل أن يكون لهم فالمراد بايثار الحياة الدنيا هو الرضاء والاطمئنان بها والاعراض عن الآخرة بالكلية كما في قوله تعالى ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الآية ويحتمل أن يكون لجميع الناس على سبيل التغليب فالمراد بايثارها ما هو اعم مما ذكر وما لا يخلو عنه الناس غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعى وترتيب المبادى وعن ابن مسعود ما يقتضيه والالتفات على الاول لتشديد التوبيخ وعلى الثانى كذلك في حق الكفرة ولتشديد العتاب في

حق لمسلمين وقيل لاالتفات لانه بتقدير قل وقرأ عبدالله وأبورجاء والحسن والجحدري وأبوحيوة وابن أبي عبلة وأبوعمرو والزعفراني وابن مقسم يؤثرون بياء الغيبة وقوله تعالى ﴿ والآخرةُ خيرٌ وأبقى ﴾ حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ والعتاب أي تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير في نفسها لما ان نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة أبدي لاانصرام له وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية الظهور ﴿ إنَّ هذا ﴾ اشارة على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد الى قوله تعالى والآخرة خير وأبقى وروى ذلك عن قتادة وقال غير واحد اشارة الى ماذكر من قوله سبحانه قد أفلح من تزكى الخ وسيأتي ان شاء الله تعالى في الحديث مايشهد له وقال الضحاك اشارة الى القرآن فالآية كقوله تعالى وانه لفي زبر الاولين وعن ابن عباس وعكرمة والسدي اشارة الى ماتضمنته السورجميعا وفيه بعد ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ أي ثابت فيها معناه وقرأ الاعمش وهرون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو بسكون الحاء وكذا فيمابعد وهي لغة تميم على ما في اللوامح ﴿ صُحُفِ إبراهيمَ وموسى ﴾ بدل من الصحف الاولى وفي ابهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وكانت صحف ابراهيم عشرة وكذا صحف موسى عليه السلام والمراد بها ماعدا التوراة أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر قال قلت يارسول الله كم أنزل الله تعالى من كتاب قال مائة كتاب واربعة كتب أنزل على شيث خمسين صحيفة وعلى ادريس ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم عشر صحائف وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان قلت يارسول الله فما كانت صحف ابراهيم قال أمثال كلها أيها الملك المتسلط على المبتلى المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها الى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فاني لاأردها ولوكانت من كافر وعلى العاقل مالم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ويتذكر فيما صنع وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فان في هذه الساعة عونا لتلك الساعات واجتماعا للقلوب وتفريغا لها وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شانه حافظا للسانه فان من حسب كلامه من عمله أقل الكلام الافيما يعنيه وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث مرمة لمعاش أوتزود لمعاد أوتلذذ في غير محرم قلت يارسول الله فما كانت صحف موسى قال كانت عبرا كلها عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح ولمن أيقن بالنار ثم يضحك ولمن يرى الدنيا وتقلبها باهلها ثم يطمئن اليها ولمن أيقن بالقدر ثم يغضب ولمن أيقن بالحساب ثم لايعمل قلت يارسول الله هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف ابراهيم وموسى قال ياأباذر نعم قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى والله تعالى أعلم بصحة الحديث وقرأ أبو رجاء ابرهم بحذف الالف والياء وبالهاء مفتوحة ومكسورة وعبدالرحمن بن أبي بكرة بكسرها لاغير وقرأ أبو موسى الاشعري وابن الزبير ابراهام بالفين في كل القرآن وقرأ مالك بن دينار ابراهم بألف وفتح الهاء وبغير ياء وجاء كما قال ابن خالويه ابرهم بضم الهاء بلا ألف ولا ياء وهذا من تصرفات العرب في الاسماء الاعجمية فان ابراهيم على الصحيح منها وحكى الكرماني في عجائبه أنه اسم عربي مشتق من البرهمة وهي شدة النظر ونسبه قد تقدم وكذا نسب موسى صلى الله تعالى عليهما وسلم

سورة «الأعلى»

مَكّية في قول الجمهور. وقال الضحاك: مَدَنِيَّة. وهي تسع عشرة آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾.

يُستحب للقارىء إذا قرأ ﴿سبحِ اسم ربك الأعلى﴾ أن يقول عَقِبه: سبحانُ ربي الأعلى؛ قاله النبيّ ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين؛ على ما يأتي. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال: إن للهِ تعالى مَلَكاً يقال له حِزْقيائيل، له ثمانيةَ عَشَر ألفَ جَناح، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام، فخطر له خاطر: هل تقدر أن تبصر العرش جميعه؟ فزاده الله أجنحة مثلها، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام. ثم أوحى الله إليه: أيها المَلَك، أَنْ طِرْ، فطار مقدار عشرين ألف سنة؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش. ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوّة، وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل أيضاً؛ فأوحى الله إليه: أيها المَلَك، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ ساق عرشي. فقال المَلَك: سبحان ربِّيَ الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبح اسم رَبِّكَ الأعلَى﴾، فقال النبيّ ﷺ: «اجعلوها في سُجودكم». ذكره الثعلبيّ في (كتاب العرائس) له. وقال ابن عباس والسُّديّ: معنى ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أي عظم ربك الأعلى. والاسم صِلة، قصِد بها تعظيم المسمَّى؛ كما قال لَبِيد:

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما[١]

---

(١) تمامه:

ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والبيت من قصيدة له، يخاطب بها ابنتيه، مطلعها:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وقيل: نزه ربك عن السوء، وعما يقول فيه الملحدون. وذكر الطبريّ أن المعنى نزِّه ٱسم ربك عن أن تسمى به أحداً سواه. وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترم. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، والأولى أن يكون الاسم هو المسَمّى. روى نافع عن ابن عمر قال: لا تقل على ٱسم الله؛ فإن ٱسم الله هو الأعلى. وروى أبو صالح عن ابن عباس: صَلِّ بأمر ربك الأعلى. قال: وهو أن تقول سبحان ربك الأعلى. ورِوِي عن عليّ رضي الله عنه، وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم: أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا: سبحان ربِّيَ الأعلى؛ امتثالا لأمره في ابتدائها. فيُختار الاقتداء بهم في قراءتهم؛ لا أن سبحان ربي الأعلى من القرآن؛ كما قاله بعض أهل الزيغ. وقيل: إنها في قراءة أبيّ: ﴿سبحان ربي الأعلى﴾. وكان ابن عمر يقرؤها كذلك. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا قرأها قال: «سبحان ربِّيَ الأعلى». قال أبو بكر الأنباريّ: حدّثني محمد بن شَهْرِيار، قال: حدّثنا حسين بن الأسود، قال: حدّثنا عبد الرحمن بن أبي حَمَّاد قال: حدّثنا عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام في الصلاة ﴿سَبِّح ٱسم رَبِّكَ الأعلى﴾، ثم قال: سبحان رَبي الأعلى؛ فلما انقضت الصلاة قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى. قال: لا، إنما أُمِرنا بشيء فقلته، وعن عقبة بن عامر الجُهَنِيّ قال: لما نزلت: ﴿سَبِّح ٱسمَ رَبِّك الأعْلى﴾ قال رسول الله ﷺ: «ٱجعلوها في سجودكم». وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى. وقيل: إن أوّل من قال: (سبحان ربي الأعلى) ميكائيل عليه السلام. وقال النبيّ ﷺ لجبريل: «يا جبريل أخبرني بثواب من قال: سبحان ربي الأعلى في صلاته أو في غير صلاته». فقال: «يا محمد، ما من مؤمن ولا مؤمنة يقولهـا في سجوده أو في غير سجوده، إلا كانت له في ميزانه أثقل من العرش والكرسيّ وجبال الدنيا، ويقول الله تعالى: صدق عبدي، أنا فوق كل شيء، وليس فوقي شيء، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له،

وأدخلته الجنة. فإذا مات زاره مِيكائيل كل يوم، فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه، فأوقفه بين يدي الله تعالى، فيقول: يا رب شَفِّعني فيه، فيقول قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة». وقال الحسن: ﴿سبح ٱسم رَبِّكَ الأعلى﴾ أي صلِّ لربك الأعلى. وقيل: أي صلِّ بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمُكَاءِ والتصدية[1]. وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك. قال جرير:

قَبَحَ الإلـهُ وَجـوهَ تغلِـبَ كلَّمـا سَبَّـحَ الحجيـجُ وكَبَّـروا تكبيـراً

[٢] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾.

[٥] ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿الذي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ قد تقدّم معنى التسوية في ﴿الانفطار﴾ وغيرها[2]. أي سوّى ما خلق، فلم يكن في خلقه تثبيج[3]. وقال الزجاج: أي عدّل قامته. وعن ابن عباس: حسن ما خلق. وقال الضحاك: خلق آدم فسوّى خلقه. وقيل: خلق في أصلاب الآباء، وسوّى في أرحام الأمّهات. وقيل: خلق الأجساد، فسوّى الأفهام. وقيل: أي خلق الإنسان وهيأه للتكليف. ﴿الذِي قَدَّر فَهَدَى﴾ قرأ عليّ رضي الله عنه والسُّلَمِيّ والكِسائيّ ﴿قَدَرَ﴾ مخففة الدال، وشدّد الباقون. وهما بمعنى واحد. أي قدّر ووفق لكل شكل شكله. ﴿فَهَدَى﴾ أي أرشد. قال مجاهد: قدّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة. وعنه قال: هَدَى الإنسانَ للسعادة والشقاوة، وهَدَى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وَحْشا. وروي عن ابن عباس والسُّدِّيّ ومقاتل والكلبيّ في قوله: ﴿فَهَدَى﴾ قالوا: عَرَّف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى، كما قال في (طه): ﴿أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى﴾[4] أي الذكر للأنثى. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه

---

(١) المكاء: الصفير. والتصدية التصفيق. قال ابن عباس: «كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون؛ فكان ذلك عبادة في ظنهم».

(٢) راجع ١٩/ ٢٢٤. (٣) التثبيج: التخليط. (٤) آية ٥٠.

استخراجها منها. وقيل: ﴿قَدَّر فهدَى﴾: قدّر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به. يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنة عمِيت، وقد ألهمها الله أنّ مسح العين بورق الرازِيانج[١] الغضّ يرد إليها بصرها؛ فربما كانت في بريَّة بينها وبين الريف مسيرة أيام، فتطوِي تلك المسافة على طولها وعلى عماها، حتى تهجُم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى. وهدايات الإنسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه، وما لا يحصر من حوائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، وإلهامات البهائم والطيور وهوامّ الأرض باب واسع، وشَوْط بطِين[٢]، لا يحيط به وصف واصف؛ فسبحان ربي الأعلى. وقال السُّدّيّ: قدّر مدّة الجنين في الرّحم تسعة أشهر، وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرّحم. وقال الفراء: أي قدّر، فهدى وأضل؛ فاكتفى بذكر أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿سرابِيل تقِيكم الحر﴾[٣] ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وإنك لتهدِي إلى صِراطٍ﴾[٤] أي لتدعو، وقد دعا الكل إلى الإيمان. وقيل: ﴿فهدى﴾ أي دلهم بأفعاله على توحيده، وكونه عالماً قادراً. ولا خلاف أن من شدّد الدال من ﴿قَدَّر﴾ أنه من التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[٥]. ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى. ويحتمل أن يكون من القُدْرة والمُلْك؛ أي ملك الأشياء، وهدى من يشاء.

قلت: وسمعت بعض أشياخي يقول: الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى. هو تفسير العلوّ الذي يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿والذِي أَخرج المَرْعَى﴾ أي النبات والكلأ الأخضَر. قال الشاعر[٦]:

وقد ينْبُتُ المَرْعَى على دِمنِ الثَّرَى ... وَتبقَى حَزازات النفوسِ كما هِيَا

---

(١) الرازيانج: شجرة يسميها أهل اليمن (السمار)، ومن خصائصها أن عصارة أغصانها وأوراقها تخلط بالأدوية التي تحد البصر وتجلوه (انظر المعتمد في الأدوية المفردة لملك اليمن يوسف بن رسول، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة). (٢) أي بعيد. (٣) آية ٨١ سورة النحل.
(٤) آية ٥٢ سورة الشورى. (٥) آية ٢ سورة الفرقان. (٦) هو زفر بن الحارث.
والدمن: السرقين ـ الزبل ـ المتلبد بالبعر. والثرى: التراب والأرض.

﴿فَجَعَلَه غُثاءً أَحْوى﴾ الغُثاء: ما يقذِف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقُماش[١]. وكذلك الغُثَّاء (بالتشديد). والجمع: الأغثاء. قتادة: الغثاء: الشيء اليابس. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبِس: غُثاءٌ وهَشِيم. وكذلك للذي يكون حول الماء من القُماش غثاء؛ كما قال:

كـأنّ طَمِيّـةَ[٢] المُجَيمِـرِ غُـدْوةً ... من السَّيْل والأغثاء[٣] فلْكَةُ مِغْزَلِ

وحكى أهل اللغة: غثا الوادي وجَفَا[٤]. وكذلك الماء: إذا علاه من الزَّبَد والقُماش ما لا ينتفع به. والأَحْوى: الأسود؛ أي أن النبات يضرب إلى الحُوَّة من شدّة الخضرة كالأسود. والحوّة: السواد؛ قال الأعشى[٥]:

لَمْيَـاء فـي شَفَتيهـا حُـوّةٌ لَعَـسٌ ... وفي اللِّثاتِ وفي أَنيابها شَنَب

وفي الصحاح: والحوّة: سمرة الشفة. يقال: رجل أحوى، وٱمرأة حوّاء، وقد حَوِيت. وبعير أحوى إذا خالط خضرته سواد وصفرة. وتصغير أحوى أحيوٍ؛ في لغة من قال أسَيْوِد. ثم قيل: يجوز أن يكون ﴿أحوى﴾ حالا من ﴿المَرعَى﴾، ويكون المعنى: كأنه من خضرته يضرب إلى السواد؛ والتقدير: أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء. يقال: قد حَوِيَ النبت؛ حكاه الكسائي. وقال:

(١) القماش (بالضم): ما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء. وقماش كل شيء: فتاته.

(٢) كذا رواه صاحب اللسان في (طما)، وقال: طمية: جبل وفي بعض النسخ ومعلقة أمرىء القيس:

كـأن ذرا رأس المجيمـر غـدوة

وقد أشار التبريزي شارح المعلقة إلى الرواية الأولى. قال: «والمجيمر»: أرض لبني فزارة. وطمية: جبل في بلادهم. يقول: قد ٱمتلأ المجيمر، فكأن الجبل في الماء فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثاء.

(٣) في المعلقة: «الغثاء» قال التبريزي: ورواه الفراء «من السيل والأغثاء»: جمع الغثاء، وهو قليل في الممدود. قال أبو جعفر: من رواه الأغثاء فقد أخطأ؛ لأن غثاء لا يجمع على أغثاء، وإنما يجمع على أغثية؛ لأن أفعلة جمع الممدود، وأفعالا جمع المقصور، نحو رحا وأرحاء.

(٤) في الأصول: (وانجفى)، وهو تحريف عن (جفا). والجفاء كغراب: ما يرمي به الوادي.

(٥) كذا في جميع نسخ الأصل، وهو خطأ. والبيت لذي الرمة كما في ديوانه واللسان. واللمياء من الشفاه: اللطيفة القليلة الدم. واللعس (بفتحتين): لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا؛ وذلك يستملح. والشنب: برودة وعذوبة في الفم، ورقة في الأسنان.

وغَيثٍ من الوسْمِيِّ حُوٍّ تِلاعُه تبطَّنتــه بشَيظَـم صَلَتــانِ[١]

ويجوز أن يكون ﴿أحوى﴾ صفة لـ ﴿غثاء﴾. والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته. وقال أبو عبيدة: فجعله أسودَ من احتراقه وقدمه؛ والرَّطب إذا يبس اسودّ. وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر، ثم لما يبِس أسودّ من احتراقه، فصار غُثاء تذهب به الرياح والسيول. وهو مَثَل ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

[٦] ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾.

[٧] ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾.

[٨] ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿فَلاَ تَنْسَى﴾ أي فتحفظ؛ رواه ابن وهب عن مالك. وهذه بُشْرَى من الله تعالى؛ بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أُمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه. وعن ابن أبي نَجيح عن مجاهد، قال: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل: كَفَيتُكَه. قال مجاهد والكلبي: كان النبيّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم للنبيّ ﷺ بأوّلها، مخافة أن يَنْساها؛ فنزلت: ﴿ سَنُقْرِئك فلا تَنْسَى ﴾ بعد ذلك شيئاً، فقد كَفَيتُكَه. ووجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفراء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئاً؛ كقوله تعالى: ﴿ خالِدِينَ فِيها ما دامتِ السمواتُ والأَرضُ إلا ما شاءَ رَبُّك﴾[٢] ولا يشاء. ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئتُ، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على ألاَ يمنعه شيئاً. فعلى هذا مجارِي الأَيمان؛ يُسْتثنَى فيها ونية الحالف التمام. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات، ﴿إلا ما شاء الله﴾. وعن سعيد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسَى شيئاً؛ ﴿إلا

---

(١) الوسمي: مطر أوّل الربيع؛ لأنه يسم الأرض بالنبات. نسب إلى الوسم. والتلاع: جمع التلعة؛ وهي أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل، ثم يدفع منها إلى تلعة أسفل منها. وهي مكرمة من المنابت: وقيل: التلعة مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض. وتبطنته: دخلته. والشيظم: الطويل الجسيم الفتى من الناس والخيل. والصلتان: النشيط الحديد الفؤاد من الخيل.

(٢) آية ١٠٨ سورة هود.

ما شاء الله﴾. وعلى هذه الأقوال قيل: إلا ما شاء اللَّهُ أن يَنْسَى، ولكنه لم ينسَ شيئاً منه بعد نزول هذه الآية. وقيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك؛ فإذاً قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسياناً كُلّيا. وقد رُوِي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسِب أُبيّ أنها نسِخت، فسأله فقال: «إني نسيتها». وقيل: هو من النسيان؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسيَك. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه. والاستثناء نوع من النسخ. وقيل: النسيان بمعنى الترك؛ أي يعصِمك من أن تترك العمل به؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه. فهذا في نسخ العمل، والأوّل في نسخ القراءة. قال الفَرْغاني: كان يغشى مجلس الجنيد أهلُ البَسْط من العلوم، وكان يغشاه ابن كَيْسانَ النحويّ، وكان رجلاً جليلا؛ فقال يوما: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئك فلا تنسى﴾؟ فأجابه مسرعاً ـ كأنه تقدّم له السؤال قبل ذلك بأوقات: لا تَنْسَى العملَ به. فقال ابن كيسان: لا يَفْضُضِ الله فاك! مثلُك من يُصْدَر عن رأيه. وقوله: ﴿فلا﴾: للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي؛ وإنما أثبتت الياء(١) لأن رؤوس الآي على ذلك. والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه؛ إلا ما شاء الله أن ينسِيكه برفع تلاوته للمصلحة. والأوّل هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتاً معلوماً. وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراء. وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل: المعنى فجعله غثاء أحوى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم، فإنه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إنه يعلم الجهر﴾ أي الإعلان من القول والعمل. ﴿وما يخفى﴾ من السر. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها. وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك. ﴿وما يخفى﴾ هو ما نسخ من صدرك. ﴿ونيسرك﴾: معطوف على ﴿سنقرِئك﴾ وقوله: ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ اعتراش. ومعنى ﴿ لِليسرى﴾ أي للطريقة اليسرى؛ وهي عمل الخير. قال ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيراً. ابن مسعود: ﴿لِليسرى﴾ أي للجنة. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى؛ وهي الحنيفية السمحة السهلة؛ قال معناه الضحاك. وقيل: أي نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به.

---

(١) يريد الألف في (تنسى)، وأصلها الياء (نسى ينسى).

[٩] ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّر﴾ أي فعِظ قومك يا محمد بالقرآن. ﴿إنْ نفعتِ الذكرى﴾ أي الموعظة. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. وكان ابن عباس يقول: تنفع أوليائي، ولا تنفع أعدائي. وقال الجُرجانِيّ: التذكير واجب وإن لم ينفع. والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى؛ أو لم تنفع، فحذف؛ كما قال: ﴿سرابِيل تقِيكُم الحَرَّ﴾(١). وقيل: إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم. وقيل: إنّ ﴿إنْ﴾ بمعنى ما؛ أي فذكر ما نفعت الذكرى، فتكون ﴿إنْ﴾ بمعنى ما، لا بمعنى الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال؛ قاله ابن شَجَرة. وذكر بعض أهل العربية: أنّ ﴿إنْ﴾ بمعنى إذْ؛ أي إذْ نفعت؛ كقوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلَونَ إنْ كنتم مؤمِنِين﴾(٢) أي إذ كنتم؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم. وقيل: بمعنى قد.

[١٠] ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

أي من يَتَّق الله ويخافه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في ابن أم مكتوم. الماوَرْدِيّ: وقد يذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء. وقيل: أي عَمِّمْ أنت التذكير والوعظ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء؛ حكاه القُشيريّ.

[١١] ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾.

[١٢] ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ويتجنّبها﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها. ﴿الأشقى﴾ أي الشقيّ في علم الله. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة. ﴿الذِي يصلى النار الكبرى﴾

---

(١) آية ٨١ سورة النحل. (٢) آية ١٣٩ سورة آل عمران.

أي العظمى، وهي السفلى من أطباق النار؛ قاله الفرّاء. وعن الحسن: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا؛ وقاله يحيى بن سلام. ﴿ثم لا يموت فِيها ولا يحيى﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه؛ كما قال الشاعر:

ألا مَا لنفسٍ لا تموتُ فينقضِي   عَناها ولا تَحيا حياةً لها طَعْمُ

وقد مضى في ﴿النساء﴾[1] وغيرها حديث أبي سعيد الخُدْريّ، وأن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم ـ وهي النار الصغرى على قول الفراء ـ احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشْفَع فيهم. خرّجه مسلم. وقيل: أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم، هذا الوعيد للأشقى، وإن كانَ ثمَّ شقِيَ لا يبلغ هذه المرتبة.

[١٤] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي قد صادف البقاء في الجنة؛ أي من تَطَهَّر من الشرك بإيمان؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة. وقال الحسن والربيع: من كان عمله زاكياً نامِياً. وقال مَعْمر عن قتادة: ﴿تَزَكَّى﴾ قال بعمل صالح. وعنه وعن عطاء وأبي العالية: نزلت في صدقة الفِطر. وعن ابن سِيرينَ ﴿قد أفلحَ مَنْ تَزَكَّى. وذكر ٱسم ربِهِ فصلى﴾ قال: خرج فصلَّى بعد ما أدّى. وقال عكرمة: كان الرجل يقول أقدّم زكاتي بين يدي صلاتي. فقال سفيان: قال الله تعالى: ﴿قد أفلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وذكر ٱسم ربِهِ فصلى﴾. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ وابن عمر: أن ذلك في صدقة الفطر، وصلاة العيد. وكذلك قال أبو العالية، وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سِقاية الماء. وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قد أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال: «أخرج زكاة الفطر»، ﴿وذَكَر ٱسمَ ربِّهِ فصلى﴾ قال: «صلاة العيد». وقال ابن عباس والضحاك: ﴿وذكَر ٱسمَ ربِّهِ﴾ في طريق المصلَّى ﴿فصلَّى﴾ صلاة العيد. وقيل: المراد

(١) راجع ١٩٦/٥.

بالآية زكاة الأموال كلها، قاله أبو الأحوص وعطاء. وروى ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: ﴿قَدْ أفلحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ للفطر؟ قال: هي للصدقات كلها. وقيل: هي زكاة الأعمال، لا زكاة الأموال؛ أي تطهر في أعماله من الرياء والتقصير؛ لأن الأكثر أن يقال في المال: زَكَّى، لا تَزَكَّى. وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «﴿قد أفلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي من شهد أَنْ لا إِلَه إلاَّ اللَّهُ، وخَلع الأندادَ، وشهد أني رسولُ الله». وعن ابن عباس ﴿تزكَّى﴾ قال: لا إله إلا الله. وروى عنه عطاء قال: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه. قال: كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة، مائلة في دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْرَ والرطبَ إلى دار الأنصاريّ، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق؛ فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه، فقال: «إن أخاك الأنصاريّ ذكر أن بُسْرك ورُطَبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها»؟ فقال: أبيع عاجلاً بآجل! لا أفعل. فذكروا أن عثمان بن عفان أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته؛ ففيه نزلت ﴿قد أفلح من تزكى﴾. ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُها الأَشقَى﴾. وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

الثانية ـ قد ذكرنا القول في زكاة الفِطر في السورة ﴿البقرة﴾[1] مستوفى. وقد تقدّم أن هذه السورة مكية؛ في قول الجمهور، ولم يكن بمكة عِيد ولا زكاة فطر. القشيرِي: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفِطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وذكر ٱسمَ ربِّهِ فصلَّى﴾ أي ذكر ربه. وروى عطاء عن ٱبن عباس قال: يريد ذكر معاده وموقفه بين يد الله جل ثناؤه، فعبده وصلَّى له. وقيل: ذكر ٱسم ربه بالتكبير في أوّل الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بذكره؛ وهو قوله: الله أكبر: وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها. وفيه حجة لمن قال: إن الافتتاح جائز بكل ٱسم من أسماء الله عز وجلّ. وهذه مسألة خلافية

(١) راجع ٣٤٣/١ فما بعد.

بين الفقهاء. وقد مضى القول في هذا في أوّل سورة ﴿البقرة﴾[1]. وقيل: هي تكبيرات العيد. قال الضحاك: ﴿وذكر ٱسم ربه﴾ في طريق المصلَّى ﴿فصلَّى﴾؛ أي صلاة العيد. وقيل: ﴿وذكر ٱسم ربه﴾ وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته، فيخاف عقابه، ويرجو ثوابه؛ ليكون استيفاؤه لها، وخشوعه فيها، بحسب خوفه ورجائه. وقيل: هو أن يفتتح أوّل كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم. ﴿فصلَّى﴾ أي فصلّى وذكر. ولا فرق بين أن تقول: أكرمتني فزرتني، وبين أن تقول: زرتني فأكرمتني. قال ٱبن عباس: هذا في الصلاة المفروضة، وهي الصلوات الخمس. وقيل: الدعاء؛ أي دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة. وقيل: صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخُدرِيّ وٱبن عمر وغيرهما. وقد تقدم. وقيل: هو أن يتطوّع بصلاةٍ بعد زكاته؛ قاله أبو الأحوص، وهو مقتضى قول عطاء. ورُوِيَ عن عبد الله قال: من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له.

[١٦] ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾.

قراءة العامة ﴿ بل تؤثِرون ﴾ بالتاء ؛ تصديقه قراءة أبيّ ﴿ بل أنتم تؤثِرون ﴾ . وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم ﴿ بل يؤثِرون ﴾ بالياء على الغيبة؛ تقديره : بل يؤثِرُون الأشقَون الحياة الدنيا . وعلى الأوّل فيكون تأويلها بل تؤثرون أيُّها المسلمون الاستكثار من الدنيا ، للاستكثار من الثواب . وعن ٱبن مسعود أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حَضَرتْ وعجِلَت لنا طيباتها، وطعامها وشرابها، ولذاتها وبهجتها، والآخرة غُيبت عنا، فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل. وروى ثابت عن أنس قال: كُنَّا مع أبي موسى في مسِير، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يَفرِي الأديم بلسانه فرياً ، فتعال فلنذكر ربنا ساعة . ثم قال : يا أنس ، ما ثَبَر[2] الناس ! ما بَطَّأ بهم ؟ قلت الدُّنيا والشيطان

(١) راجع ١/ ٥٧١ فما بعد.
(٢) الثبر: الحبس؛ أيّ ما الذي صدهم ومنعهم عن طاعة الله.

والشهوات. قال: لا، ولكن عُجِّلتِ الدنيا، وغُيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيَّلوا[١].

[١٧] ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾.

أي والدار الآخرة؛ أي الجنة. ﴿خير﴾ أي أفضل. ﴿وأبقى﴾ أي أدوم من الدنيا. وقال النبيّ ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليمّ، فلينظر بِمَ يرجع» صحيح. وقد تقدم[٢]. وقال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يُؤْثَر خزف يبقى، على ذهب يفنى. قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى.

[١٨] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨﴾.

[١٩] ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأولى﴾ قال قتادة وابن زيد: يريد قوله ﴿والآخِرة خير وأبقى﴾. وقالا: تتابعت كتب الله جل ثناؤه ـ كما تسمعون ـ أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا. وقال الحسن: ﴿إنّ هذا لَفِي الصحف الأُولى﴾ قال: كُتُبِ الله جل ثناؤه كلها. الكلبيّ: ﴿إنّ هذا لَفِي الصحفِ الأولى﴾ من قوله: ﴿قد أفلح﴾ إلى آخر السورة؛ لحديث أبي ذرّ على ما يأتي. ورَوى عِكرمة عن ابن عباس: ﴿إنّ هذا لفي الصحف الأولى﴾ قال: هذه السورة. وقال الضحاك: إن هذا القرآن لفي الصحف الأولى؛ أي الكتب الأولى. ﴿صُحُفِ إبْرَاهِيمَ ومُوسَى﴾ يعني الكتب المنزلة عليهما. ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما هو على المعنى؛ أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. وروى الآجُرّي من حديث أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله، فما

(١) قوله «ما عدلوا»: ما ساووا بها شيئاً. وقوله «ولا ميلوا»: أي ما شكوا ولا ترددوا (عن النهاية لابن الأثير).

(٢) راجع ٤/ ٣٢٠.

كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلُّها: أيها الملك المتسلِّط المُبتَلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر. وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له [ثلاث][1] ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها في صنع[2] الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، وَمَرَمَّة لمعاشٍ، ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه. ومن عدّ كلامه من عمله قلَّ كلامُه إلاَّ فيما يعينه». قال: قلت يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عِبراً كلُّها: عجِبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف ينْصَب. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل»! قال: قلت يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم اقرأ يا أبا ذرّ ﴿قد أَفلَحَ من تَزَكَّى. وذَكَر ٱسمَ ربهِ فصَلَّى. بل تُؤْثِرونَ الحياةَ الدنيا والآخِرةُ خيرٌ وأبقى. إن هذا لفي الصحف الأولى. صُحُفِ إبراهِيمَ ومُوسَى﴾. وذكر الحديث.